424

HARLEQUIN

روايات أحلام

درس في الحب

كاثرين سبنسر

www.elromancia.com
مرمورية

درس في الحب

عندما وصلت ناتالي كافانوف الوريثة الوحيدة لثروة جدتها الطائلة، إلى فيلا روزاموندا على الشاطىء الإيطالي، لم تكن تضع في حسبانها الوقوع في غرام رجل يتحدر من عائلة مجرمين. رجل يبدو خطرا بكل ما للكلمة من معنى. ديميتريو برتولوزي شاب طويل القامة، أسمر، ذو وسامة خانقة، يعمل بمفرده في ترميم منزل عائلته القديم. ظل هذا الرجل غامضا تماما كغموض أمواله. إلا أن ناتالي وجدت نفسها منجذبة إليه كانجذاب الفراشة إلى ألسنة النار، رغم إحساسها أن حبها لهذا الرجل سيحطم قلبها وسيضعها في دائرة الخطر!

لبنان	3000ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	100ل.س.	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2.50دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 978-9953-15-392-6

كاترين سبنسر

كانت كاثرين مدرسة لغة انكليزية وتحولت إلى التأليف بعد أن سمعت حديثاً حول روايات هارلكوين العاطفية. لم يمض أكثر من شهرين حتى غيرت مهنتها وباعت كتابها الاول لشركة «ميلز أند بون» سنة ١٩٨٤.

انتقلت من انكلترا إلى فانكوفر في كندا وتزوجت من كندي ورزقت منه بأربعة أولاد.

تقتني ثلاثة كلاب وقطة وتعزف على البيانو في أوقات فراغها وتهوى جمع التحف وزراعة النباتات الغريبة.

١- وجه في الظلام

كان دمتريو يقف على السطح، ما سمح له أن يرى بوضوح السيارة التي يقودها السائق بمهارة ليوقفها تحت رواق مدخل الفيلا المجاورة. إنها سيارة مرسيدس أنيقة، قوية، تعكس شخصية المرأة التي تملكها.

باربرا وايد هي أسطورة في عالم الأعمال على المستوى الدولي، ومصممة للحلي المرصعة بالماس. لم يكن في حياتها زوج واحد بل أزواج، فقد قرأ دمتريو في مجلة فورتشن ومجلات مشابهة، أنها أرعبت زوجيها الأولين وأبعدتهما عنها، أما الثالث فقد أودت به إلى القبر.

في ذلك الصباح، لم تخرج من السيارة بربارة وايد، بل امرأة بالكاد تخطت سن المراهقة. رشيقة، أنيقة، ذات بشرة بيضاء كالرخام، شعرها البني اللامع يتدلى بانسياب فوق كتفيها. استنتج دمتريو أنها حفيدة باربرا، فقد سمع عمال الحديقة المجاورة يتحدثون عن توقع وصولها.

وكأن المرأة أحست أن هناك من يراقبها، فتوقفت في منتصف الطريق بين السيارة والباب الأمامي للفيلا، ثم رفعت رأسها ونظرت مباشرة إلى عينيه. لو أن أي عامل عادي ضبط متلبساً بالتصرف بوقاحة في تلك المقاطعة الإيطالية الواقعة بين بوستيانو وآمالافي، لراح ينظر إلى البعيد متظاهراً بأنه يستمتع بالمناظر الطبيعية، لكن دمتريو برتولوزي يفتخر بأنه إنسان غير عادي، لهذا استمر في التحديق بها.

إنه يعرف نفسه جيداً، فهو ليس أكثر من شخص عنيد، وقد زادته كبرياؤه الجريحة عناداً، لكن موقفه هذا سيبدو بلا شك وقاحة في نظر تلك المرأة. بدا ذلك واضحاً في انحناء رأسها، والتصلب الرقيق لعمودها الفقري. من المستبعد

www.elromancia.com

أن يقدم أحد العمال الإيطاليين الذين يتصببون عرقاً على النظر بوقاحة إلى فاتنات المجتمع الأميركي، وهو يرفع المطرقة بيده والجزء العلوي من جسمه عارٍ، إذا كان يرغب في الاحتفاظ بعمله.

لكن ما لا تعرفه تلك المرأة بالطبع، هو أنه ليس مسؤولاً أمام احد، بل هو سيد نفسه، وحر ليحدق طوال النهار إن رغب بذلك. وهذا ليس كل شيء. ظهرت ابتسامة صغيرة مرحة على وجهه. لا بد أنها ستشعر بالمهانة أكثر عندما تعرف المزيد من التفاصيل. بإمكانه أن يتخيل ما سيحدث.

- ذلك الرجل في المنزل المجاور، جدتي... من يكون؟

- آه! إنه شخص كريه جداً، ابنتي الغالية، وهو بالطبع ليس من الأشخاص الذين تريدين التعرف عليهم.

يمكنه أن يراهن أنها لا تعرف عدداً كبيراً من الرجال. من المؤكد أنها لم تحصل على حبيب يوماً، فهي تنضح بهالة مجردة من العاطفة، وهذا واضح جداً. في تلك اللحظة تقريباً، أشرقت شمس أواخر حزيران من السماء الصافية، وقد امتد تحتها البحر التيراني الذي يصل حتى صقلية. وبينهما، على رأس منحدر صخري، انتصبت فيلا ديلفيني، التي سميت كذلك على اسم جدته، والتي هي الآن ملك له.

انحنى دمتريو والتقط زجاجة الماء الموضوعة تحت ظل إحدى المداخن، ورفعها إلى شفتيه من دون أن يبعد نظره عن الفتاة. أخيراً شعرت هذه الأخيرة بالهزيمة، وأخفضت بصرها لتنظر بعيداً عنه، وجالت بعينيها على الجدران الباهتة اللون والنوافذ المليئة بالغبار والأوساخ.

عرف دمتريو تماماً ما الذي رأته، مضى أكثر من أربعة عشر عاماً على إخلاء المنزل، وهو مهمل منذ ذلك الحين. كما مرت تسعة أعوام على وفاة جده، أوفيديو برتولوزي، في السجن. إنها النهاية الملائمة لرجل جمع حوله المجرمين الذين نشروا الرعب والخوف في قلوب الناس، فحصل على كرههم واحتقارهم له. في البداية، لم يرغب دمتريو بأي شيء لمسه أوفيديو، فقد ترك هذا الأخير بصماته على كل جدار من الجدران. أخيراً أدرك أنه سمح للرجل العجوز بأن

يسيطر عليه حتى وهو في قبره، عندئذٍ سمح دمتريو للمنفعة الشخصية أن تتغلب على كبريائه، ووافق على الحصول على حصته في الميراث. لكن ذلك لم يشمل الفيلا الواقعة على شاطئ آمالافي، فالذكريات هنا مؤلمة جداً، والجروح مازالت تنزف. احتاج إلى سنوات قبل أن يتمكن من مواجهة ذلك ثانية، وحتى الآن، ما كان ليرجع لو لم يكن لرجوعه علاقة بجدته.

الفيلا وحديقتها كانتا ملاذها، فقد أحبتهما وأحبت دمتريو. إنها الإنسانة الوحيدة التي أحبته. لذلك عاد في نهاية الأمر ليعلن ملكيتهما مدفوعاً باحترامه وحبه لها. لا شك أن قلبها كان ليتحطم لو رأت انتهاك حرمة منزلها من قبل المخربين، والخراب الناتج عن الطقس والقوارض وعوامل الزمن.

استدارت الأميرة الأميركية مبتعدة، وقد بدت مرتعبة مما شاهدته في المنزل المجاور. لا يلحق الخراب بالفيلات المنتشرة على شاطئ آمالافي إلا إذا كان أصحابها من أفراد العصابات. عندها تصبح هدفاً سهلاً لأي شخص يرغب في تدميرها، بينما تغض السلطات النظر بكل فرح ورضى.

اختفت ابتسامته، وهو يمرر ذراعه فوق فمه، قائلاً بصوت ناعم: «لكنني لست مجرماً كما أنني لن أذهب إلى أي مكان أيتها الأميرة، لذلك من الأفضل أن تعتادي على وجودي»

* * *

- اعتقدت أنني سمعت صوت السيارة تقترب! عزيزتي! لماذا بحق السماء مازلت واقفة هنا في هذا الحر الشديد، بينما أنا بانتظارك على الشرفة مع شراب بارد؟

نزلت جدتها الدرج وهي تختال بعباءة طويلة من الحرير البرونزي اللون يصرخ بالثراء، وضمت ناتالي في عناق عابق بالعطر. تماماً كما تختار أفضل مصممي الأزياء، وتنتقي المجوهرات الفريدة، تفضل باربرا وايد عطر «ديفا». من المؤكد أنه العطر الوحيد المناسب للمرأة التي تستأثر بمركز السلطة فلا تهتم لأي شيء آخر. بالإضافة إلى أنها تملك عقلاً مدبراً للأعمال يجعل كل رجال الأعمال المميزين يلهثون وراءها، تملك باربرا أيضاً قلباً لا حدود لقدرته على

www.elromancia.com

الحب والعطاء، وهو النجم الهادي لناتالي منذ نعومة أظافرها.

طوقت ناتالي جدتها بذراعيها وقالت: «لا تتصوري مدى سعادتي لأنني قررت أن أمضي الصيف هنا! أنت لم تتغيري أبداً، وأشعر بالامتنان كثيراً لذلك».

أبعدتها جدتها عنها قليلاً لتتمكن من النظر إليها جيداً.

- سمعت بشأن لويس، عزيزتي. هل تشعرين أنك محطمة؟

ضحكت ناتالي بصوت مرح وقالت: «ما من امرأة ترغب في أن يتخلى عنها أي رجل، لكنه لم يكن يوماً حب حياتي. صدقيني جدتي، كنت لأنهي علاقتنا بنفسي، إلا أنه سبقني إلى القيام بذلك. هذه هي كل القصة».

- أعتقدت أمك أنك ستتزوجينه.

- أملت أمي أن أتزوج به، وأنسى تماماً أي عمل له علاقة بشركة وايد العالمية، وهذا أمر مختلف!

- نعم، أعتقد أن ما تقولينه صحيح.

عادت جدتها تتأملها باهتمام وحذر وهي تتابع: «أهذا السبب لا تبدين كعادتك؟ ألأنك تشاجرتِ مع ابنتي؟»

- لا!

نقلت ناتالي نظرها مرة ثانية إلى سطح المبنى المجاور. كان لا يزال هناك، متكئاً على أحد أعمدة المداخن، وهو مازال يحدق إليها بوقاحة!

شعرت جدتها بالفضول لتكتشف ما الذي أثار انتباهها، فرفعت نظرها، وسرعان ما قلبت شفتيها مظهرة اشمئزازها. قالت بنبرة ملؤها الانزعاج: «انتقلت ملكية المنزل المجاور إلى الكلاب، وهذا ما كنت أخشاه».

حثت ناتالي خطاها لتدخل إلى الفيلا بعيداً عن تحديق الشاب الوقح.

- تمنيت أن يعرض المكان للبيع، علّ شخصاً محترماً يشتريه، لكن ذلك لم يحدث.

لم تتمكن ناتالي من مقاومة النظر مرة أخيرة من وراء كتفها إلى الرجل.

- أتعنين أن ذلك الرجل يملك المنزل؟

- لسوء الحظ، هذا صحيح عزيزتي. لكن لا تشغلي بالك. لا أحد يرحب به في هذه المنطقة، وهو يعلم أن من الأفضل له ألا يعترض طريقنا.

لكنه تعمد أن يفرض نفسه على ناتالي، وإن يكن عن بعد. بدأ كأن نظرته الوقحة تخترق سترتها وتنورتها المصنوعتين من الكتان، فتصل مباشرة إلى جلدها وعظامها. شعرت ناتالي كأنما تمكن هذا الرجل من اختراق أعماق نفسها، ووصل إلى أسرارها، آمالها وأحلامها التي لم تشارك بها يوماً أحد.

سألت وهي تتبع جدتها عبر المدخل: «لماذا تقولين إنه غير محترم؟»

- إنه من عائلة برتولوزي، وأتمنى أن يكون آخر أفراد تلك السلالة السيئة. قدمت هذه العائلة من كروتون في الأساس، حيث اشتهر أفرادها هناك بتورطهم في الجرائم المنظمة. تصوري أن والده توفي مقتولاً برصاص رئيس عصابة، ثم وجد هذا الأخير مقتولاً، معلقاً في مخزن للحوم بعد مرور عدة أيام. لكن ما الذي يتوقعه المرء غير ذلك من أناس تدور حياتهم كلها حول الابتزاز والاجرام؟

رأت ناتالي المراوح تدور ببطء في السقف العالي، حيث علقت الثريا المصنوعة من الكريستال اللامع فوق الدرج الدائري، كما وضعت أوانٍ ضخمة من البورسلين استوردت خصيصاً من الصين وقد ملئت بالزهور التي قطفت من الحديقة هذا الصباح.

نظام العمل في منزل جدتها يبقى على حاله، بغض النظر عن عدد الضيوف الذين يأتون للإقامة عندها، فباربرا وايد تستطيع تقديم أفضل الخدمات لضيوفها، وهي لا ترضى بأقل من ذلك. مع ذلك ها هي الآن قد ابتليت بجار أقل ما يقال فيه إن علاقاته مريبة.

سألت ناتالي بفضول: «منذ متى تعيش تلك العائلة هنا؟»

- منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً، اشترى جد هذا الرجل تلك الفيلا.

- لابد أن ثمن المنزل يوازي ثروة صغيرة حتى في ذلك الوقت، فكيف استطاع تأمين ذلك؟

أدارت جدتها عينيها باشمئزاز، وقالت: «من يدري؟أمر واحد لا يقبل

www.elromancia.com

الشك أبداً، هو أنه دفع ثمن تلك الفيلا من المال القذر».

- يدهشني أن يوافق السكان هنا على البيع.

- ما كانوا ليفعلوا لو أنهم عرفوا. لكن تمت عملية البيع بأيد خفية من قبل تاجر لبيع الأراضي، لم تكن لدى السكان الذين يعيشون هنا أية فكرة عن المالك الجديد إلا بعد أن تمت عملية البيع. لو عرف أحدنا بالأمر لقمنا بالمستحيل كي نمنع تلك الصفقة. على أي حال تبدلت الأيام منذ عهد جده، ولن يسمح أحد للشاب برتولوزي أن يقدم على أي عمل يثير الشبهة. إن تجرأ على ذلك سيتمنى لو أنه لم يظهر هنا مطلقاً.

بعد تلك الملاحظة، فركت جدتها يديها معاً، في إشارة إلى رغبتها بإنهاء الحديث عن العائلة المزعجة التي تملك المنزل المجاور.

- سيقدم روميرو الغداء بعد قليل، وأنا لم أتناول الشاي بعد. هل ترغبين بمشاركتي، أم تفضلين شراباً بارداً كالعادة؟

أجابت ناتالي: «سأتناول الشراب البارد، من فضلك!».

وتابعت السير برفقة جدتها وهي تسير بنشاط عبر المنزل إلى الشرفة الكبيرة المظللة التي تشرف على الشاطئ.

بغض النظر عن عدد المرات التي تزور فيها فيلا روزا موندا، فإن النظرة الأولى إلى الاتساع الهائل للبحر والسماء يجعل ناتالي تحبس أنفاسها نظراً لانحدار الأرض في تلك المنطقة، فقد سوّيت الحديقة على شكل مدرجات، تاركة للمشاهد ان يحظى بمنظر يمتد من بلدة آمالافي من جهة الشرق إلى أقصى بوستيانو من جهة الغرب.

انتظرت حتى قدم لها الشراب، ثم علقت بصوت هادئ: «أنت تملكين هذا المكان منذ وقت بعيد جداً، لكنني لم أسمعك تذكرين عائلة برتولوزي قبل الآن!»

- كما تذكرين من زياراتك السابقة، بقي المنزل فارغاً لسنوات عدة. أوفيديو برتولوزي، مؤسس العائلة، مات في السجن، وزوجته ماتت بعده بفترة قصيرة. كانت امرأة لطيفة، رقيقة، وجميلة جداً، ولطالما تساءلنا ما الذي

دفعها للزواج برجل مثله، إذ إن عدداً كبيراً من الرجال الشرفاء كانوا يتمنون إتخاذها زوجة لأحدهم.

قالت ناتالي: «ربما كانت مغرمة به».

طغت على ضحكة جدتها مسحة واضحة من السخرية قبل أن ترد: «يالك من مخلوقة رومنسية لا يمكن شفاؤها، مع أن الرومنسية ليست صفة مناسبة لامرأة يفترض بها أن ترأس شركة وايد العالمية في يوم من الأيام، لكن بالرغم من ذلك، مازلت عزيزتي الغالية»

- لا أرى سبباً يمنع الجمع بين الحب والعمل. أنت نفسك وقعت في الغرام بما يكفي لتتزوجي ثلاث مرات، وفي النهاية لم تسمحي للحب بأن يثني عزمك.

- يمكن للحب والعمل أن يجتمعا، على ما أعتقد، هذا إذا وجد التفاهم الواضح بين الشخصين. لكن لسوء الحظ، ليس من السهل العثور على الرجال الأقوياء الذين يستطيعون التأقلم مع الزوجة الناجحة، فمعظم الرجال يخافون أن ينتهي بهم الأمر بالتخلي عن رجولتهم.

- أعتقد أن هذا ما أخاف لويس.

- إذاً، من حسن حظك أنك تخلصت منه.

أمسكت جدتها يدها بحنان وقالت: «كيف هي الأحوال في المنزل ناتالي؟».

- لا بأس! لكن أبي لا يفهم لماذا لا أستطيع الاتصال بمكتب بوسطن، والعمل من المنزل على الرغم من وجود كل تجهيزات التكنولوجيا الحديثة.

- لأنه غير قادر على الرؤية أبعد من نادي الغولف أو يخته. ناسبه تماماً الزواج من امرأة ثرية.

- ليس هذا ما يبقيه وأمي معاً، فهما يحبان بعضهما كثيراً.

لم تقدّر باربرا يوماً شخصية صهرها اللطيفة والمعتدلة، ولن تفعل ذلك مطلقاً. وهذا أمر اعتادت ناتالي وجدتها على عدم الاتفاق بشأنه.

تخلت ناتالي عن التعليق، وعادت إلى الموضوع الأكثر إثارة لاهتمامها.

www.elromancia.com

- إذاً، كما فهمت، تفاجأتِ عندما علمت بوجود جارك من جديد؟

- ارتعبت هي الكلمة التي تعبر أكثر عن ردة فعلي! بقي المنزل مهجوراً لمدة طويلة، وأمل كل شخص في المنطقة أن يتحول المكان إلى رماد، فهكذا ستنتهي منه ومن عائلة برتولوزي. وفجأة، في صباح أحد الأيام، فتحت الأبواب القديمة الصدئة، ورأينا الحفيد يقود شاحنة محملة بالمعدات ومواد البناء. لم نعرف يوماً هادئاً منذ ذلك اليوم، فهو إما يستعمل المطرقة أو آلات ذات محركات منذ الفجر حتى الغروب.

- ربما هو يعمل على ترميم المنزل من أجل بيعه.

أنهت جدتها شرب فنجان الشاي، وسلمته إلى روميرو، قبل أن تعلق: «هذا ما أتمناه، عزيزتي! هذا ما أتمناه!».

* * *

كما يحدث عادة بعد رحلة طيران طويلة فوق المحيط الأطلسي، كان جسم ناتالي مرهقاً ولا يعمل بانتظام. على الرغم من خلودها إلى النوم بعد العشاء مباشرة تلك الليلة، وجدت نفسها تستيقظ بنشاط عند الساعة الواحدة صباحاً. حتى صوت تدفق الأمواج لم يتمكن من إعادتها إلى النوم. رمت غطاء السرير بعيداً وخرجت إلى الشرفة التابعة لغرفتها.

كم تبدو النجوم مشعة وقريبة! إنها أشبه بحبات من الماس كبيرة ومتعددة الأحجام معلقة في السماء الداكنة اللون.

اتكأت ناتالي على سياج الشرفة، وقد اعتادت عيناها على نور الليل. امتدت الحديقة تحتها، وراحت مياه البركة تتموج بلطف كأنها قطعة من الساتان.

لمحت بالقرب من قدمها، برعماً من نبتة ورد متسلقة في بداية تفتحه، بدا أحمر اللون داكناً كالدم. انحنت ناتالي لتستنشق عبيره الفواح، ثم رفعت رأسها بسرعة ما إن طغت على تلك الرائحة رائحة دخان عطر قوية سيطرت على حواسها.

قدمت تلك الرائحة من الجهة المقابلة للجدار الشرقي، حملتها نسمة خفيفة

من الهواء. وقفت على رؤوس أصابع قدميها لتستكشف مصدر الرائحة، وسرعان ما أدركت أنها ناتجة عن شمعة ذات رائحة عطرة أضيئت لطرد الحشرات الطائرة على شرفة الطابق العلوي للمنزل المجاور.

استرعت انتباهها حركة إلى الجهة اليسرى، فالتفتت، وإذا بها ترى برتولوزي الحفيد متكئاً على الجدار. تساءلت كيف لم تلاحظ وجوده من قبل. بدا كأن ضوء المصباح في الغرفة وراءه يلقي عليه نوراً خافتاً، تاركاً وجهه في الظلام، وفيما هي تتأمله، رفع كوبه عالياً للحظة كأنه يلقي عليها التحية، ثم أنزله إلى فمه وشرب منه. أدركت ناتالي أنه رآها قبل وقت طويل من إدراكها لوجوده، وأنه يراقبها منذ اللحظة التي خرجت فيها إلى الشرفة.

لو أنها استسلمت لردة فعلها الأولى لتراجعت إلى غرفتها، واختبأت وراء ستائرها الرقيقة، لكن كبرياءها ثبتتها في مكانها. رفضت أن تخفض كتفيها وتبتعد عن الأنظار. بدلاً من ذلك، نظرت إليه بتحدٍ، والدم يضج بقوة في عروقها.

كيف تراه يبدو عن قرب؟ تساءلت وهي تشعر بالغضب والفضول معاً. ليست بحاجة إلى تلك الأخبار التي سردتها جدتها عن عائلته لتحذرها بأن تبقى بعيدة عنه إن كانت تملك ذرة من المنطق فهذا ما عليها أن تفعله. الهالة الغريبة التي تحيط به تجعله لا يشبه أحداً من الذين عرفتهم من قبل، كالرجال الذين يترددون إلى النوادي ورجال الأعمال، فهؤلاء، إن وجدوا أنفسهم يوماً بحاجة إلى القيام بأعمال مشبوهة، سيستخدمون رجالاً للقيام بتلك الأعمال من دون أن يلوثوا أيديهم بها.

أما برتولوزي، فهو بدون شك ليس كذلك إن اضطره الأمر إلى القيام بعمل قذر فسوف يقوم به بنفسه. لا شك عندها بذلك! ما اسمه الأول؟ وكم يبلغ من العمر؟ ألديه زوجة أم صديقة؟ فكرت في قرارة نفسها، أن من غير المنطقي أن تكون لديه صديقة عادية كغيره من الرجال، رجل مثله قد تكون لديه عشيقة، ومن المحتمل أنها زوجة رجل آخر.

طغى عليها إحساس كبير بالفضول، جعلها تشعر بالحرج والتردد. أخيراً

www.elromancia.com

قررت ناتالي أن تضع حداً لهذا الوضع الحالي قبل أن تحرج نفسها أمامه.

في اللحظة التي أبعدت فيها نظرها عنه، قفز مبتعداً عن جدار الشرفة، بحركة رشيقة تشبه حركات حيوانات الغابة. أنهى شرابه، وسار نحو الأبواب الفرنسية، ثم توقف قليلاً ليواجهها مرة أخرى قبل أن يرفع يده محيياً.

لا شك أنه يتسلى، محاولاً أن يؤثر عليها بإلقاء التحية، وكأنه من جديد تمكن من معرفة ما يدور في رأسها من أفكار.

فارقها الكبرياء حينها، وشعرت بخديها يتقدان. استدارت وتراجعت إلى غرفتها كأرنب خائف، وهذا ما يجب أن تشعر به.

فيما هي تغلق الأبواب الفرنسية الطراز لغرفتها، خيل إليها أنها سمعت صوت ضحكته المميزة تنساب مع هواء الليل البارد. أتراها سمعتها حقاً؟ هي ليست متأكدة...

٢ - شيطان وملاك

أتراها حقاً أخطأت الممر وهي في طريق عودتها من الشاطئ بعد مرور أربعة أيام، أم أنه خطأ متعمد من قبلها لأن فضولها القوي انتصر على عدم مبالاتها في نهاية الأمر؟

مهما كان السبب الحقيقي، ما إن تقدم ناتالي على أمر ما، فليس هناك من فرصة للتراجع. تسلق المنحدر الصخري جعلها تشعر بالإرهاق فعلاً. ولسوء الحظ، في الوقت الذي وصلت فيه إلى القمة وهي تكافح لتجتاز الجدار المغطى بأوراق الكرمة كي تدخل إلى الحديقة المهملة للمنزل المجاور، تخلى عنها فضولها وساورها إحساس قوي من الجبن. مع ذلك، لم يتخلَّ عنها حظها تماماً، إذ لم يكن هناك أي دليل على وجوده في مكان قريب منها، ومن خلال سماعها لصوت المنشار الكهربائي في مكان ما من الجهة البعيدة من المنزل، استنتجت أنه منشغل جداً، ولن يدرك أن خصوصياته قد انتهكت.

مازال الهروب في متناول يدها، فالحاجز الذي تشكله الشجيرات النامية يحجبها عن الأنظار. بإمكانها أن تختبئ وراءه، وتسير نحو الطريق الفرعية، بعدئذٍ ستصل إلى الطريق عبر الأبواب الأمامية في غضون دقائق قليلة. لم يفت الأوان بعد كي تستخدم المنطق السليم وتبتعد عن هذا المكان... إلا أن المنطق والحذر لم يكن لهما أي تأثير على ناتالي في ذلك الصباح.

شعرت في داخلها بافتتان غريب لا تفسير له بذلك الرجل، وبرغبة عارمة باقتحام ملكيته. لقد عاشت في ترف ودلال طوال حياتها؛ نشأت في قصر محاط بالمياه في مقاطعة طالبوت على الشاطئ الشرقي لماري لاند، حيث تولى العناية بها مربيات وخدم مخلصون. زارت قصوراً ملكية وصروحاً معمارية تعتبر هندستها

www.elromancia.com

ودقة بنائها أسطوريتين، لكن لا شيء يمكن مقارنته بهذا. بدت منجذبة بطريقة لايمكن تفسيرها إلى المنظر البادي أمامها الآن. لم يكن لديها أي عذر لتقطع المسافة التي تفصلها عن الباب المفتوح الواقع في الجهة الأخرى للفناء. بالطبع، لا يحق لها مطلقاً أن تسترق النظر إلى الداخل، لكن معرفتها بذلك لم تثنها عن عزمها، بل على العكس من ذلك زادت من فضولها وحماسها.

اجتازت العتبة ودخلت إلى المطبخ الفسيح في وقت يقل عما يستغرقه العصفور لينتقل من غصن إلى آخر. رأت أرض المطبخ مرصوفة بحجارة التراكوتا، وقد تكسرت عدة بلاطات منها في أماكن عدة، وفقدت أخرى في أماكن مختلفة. هناك مغسلة قديمة تحت النافذة، ولوح من الرخام مثبت في الجدار الجانبي، وبراد قديم جداً يقعقع في إحدى الزوايا. في وسط الغرفة وضع لوح من الخشب على حمالتين تستخدمان لنشر الحطب. لا بد أنه يستعمل كطاولة، فهناك كوب كبير وزجاجة مياه معدنية فارغة فوقه.

شعرت ناتالي بالانزعاج لأن العرق راح يتصبب من جسمها بسبب الحرارة والعطش الشديد، ما جعل لسانها يلتصق بسقف فمها. وضعت حقيبة الشاطئ ونظارتيها الشمسيتين على الطاولة، وتساءلت إن كانت المياه في الفيلا صالحة للشرب. على الأرجح أنها ليست كذلك، وخير دليل على ذلك الصدأ الذي يعلو المغسلة، وزجاجات المياه الفارغة المتروكة في المطبخ. مادام الرجل يشرب من الماء المعبأ في زجاجات خاصة، فذلك يعني أنه يحتفظ بكمية منها، وليس من الصعب إيجاد مكانها.

فتحت باب البراد، فوجدت أكثر من دزينة من زجاجات المياه المعدنية، بالإضافة إلى مجموعة من الزجاجات التي تحتوي على أنواع مختلفة من عصير الفواكه، تكفي مجموعة من عشرة أشخاص لمدة أسبوع كامل. لم تتردد ناتالي لحظة واحدة، قبل أن تمسك إحدى زجاجات المياه. نشأت ناتالي على تربية صارمة علمتها أن تكون صادقة ونزيهة، ومن الطبيعي أن تشعر بالرعب من نفسها إن قامت بعمل مشين كالسرقة. لكنها ليست على طبيعتها مطلقاً هذا النهار، كما فكرت بانبهار. ربما يعود السبب إلى العطش القوي الذي تشعر

به، مما أدى إلى إصابتها ببعض الجنون. أي سبب آخر يمكنه أن يفسر اقتحامها لمنزل شخص غريب وكأنه منزلها؟ لكن في تلك اللحظة، بدا إطفاء عطشها هو الأهم لديها من أي شيء آخر. وتجرعت محتوى أكثر من نصف الزجاجة قبل أن تتابع استكشاف الغرفة.

رأت قميصاً معلقة على مسمار في الحائط. إنها مصنوعة من الدنيم، وقد أصبحت ناعمة كالحرير بسبب الغسيل المستمر، هذا ما فكرت به، وهي تلمس القماش بأصابعها. غير أنها لم تلمح أي أثر يدل على وجود امرأة في المنزل. أيقوم الرجل بغسل ثيابه بنفسه؟ هل يطهو طعامه على ذلك الموقد الصغير؟

- الفيلا لا تساوي الكثير، لكن الأرض تستحق ثروة لا بأس بها!

هذا ما صرحت به باربرا، وهما تتناولان العشاء في الليلة الماضية، ثم أضافت: «لست أفهم لماذا لا يسعى هذا الرجل للدخول في سوق بيع الأراضي هنا ويرحل، بدلاً من تضييع جهوده في إصلاح بناء لا يستحق العناء؟ الله وحده يعلم السبب! إن باع ملكيته تلك، بإمكانه أن يعيش مرتاحاً لما تبقى من عمره، لكن في مكان بعيد من هنا، بالطبع».

أوضحت جدتها نقطة حيوية جداً. فالأرض المحيطة بالفيلا شاسعة، وهي مع كل هذا تتمتع بمناظر تقدر بملايين الدولارات، ولا شك أنها ستجذب الراغبين بالشراء كما يجذب العسل النحل. إذاً، ما الذي يدفع رجلاً وحيداً بدون زوجة وأولاد لأن يعمل بجهد متواصل لإعادة المنزل، إلى سابق عهده من الأناقة بحيث يلائم عائلة كبيرة، بينما هو يستطيع العيش براحة في مكان آخر؟

سارت ناتالي نحو الباب الخلفي من جديد، وحدقت إلى الخارج. الورود البرية وأزهار البوغنفلية تتوزع هنا وهناك مع أنواع كثيرة أخرى من النباتات، والفراشات تتنقل بسرعة بين أحواض الزهور الملونة. أما المروج التي كانت سابقاً حدائق غناء فقد تحولت إلى مساحات مليئة بالأعشاب الطويلة. سمعت زقزقة العصافير تملأ الأجواء، مصحوبة بخرير المياه المتساقطة من صخرة طبيعية إلى بركة للسباحة، يمكن الوصول إليها عبر جسر حجري. ومع أن كل ما تبقى من الحديقة بدا مهملاً لم يحظ بالعناية منذ سنين، فالبركة تتلألأ بمياهها

www.elromancia.com

البلورية، مايدل بوضوح على أنه يستعملها.

ببساطة، أدركت ناتالي السبب الذي يمنع هذا الرجل من الرحيل ومغادرة المكان. حتى في هذا الوضع المهمل المزري، يتمتع هذا المكان بصفاء قلّ مثيله، وجو هادئ لا علاقة له مطلقاً بعالم الجريمة. إنه جو من الطمأنينة والفرح، المشوب بمشاعر الحب والرومنسية.

تمتمت، وهي تضع راحة يدها على حاجب الباب الذي بدا حاراً بسبب أشعة الشمس: «لو كنتَ تستطيع الكلام، فما الذي ستقوله؟»

صوت غريب، عميق وغامض كليلة إستوائية سمع من مكان ما في الغرفة وراءها: «أتخيل أن أول ما سيقوله: ماذا تعتقدين أنك تفعلين هنا، بحق السماء؟ أتدعين نفسك للدخول وتتصرفين كأنك في منزلك؟»».

استدارت وهي تشعر بالذنب والرعب معاً، فسقطت الزجاجة من يدها، وتبعثر الزجاج والمياه على أرضية المطبخ. اتكأ برتولوزي على الباب الذي يؤدي من المطبخ إلى بقية أنحاء المنزل. بدا مرتاحاً، حافي القدمين، وقد وضع إبهامه بلا اهتمام في حلقة حزامه. لكن لم يكن لديها أي شك أنها إن حاولت الهروب، فسيقطع الغرفة ويمسك بها قبل أن تصل إلى عتبة الباب الخلفي.

لاحظت أنه يرتدي بنطلون جينز ذا لون أزرق باهت ضيق عند وركيه. حاولت أن تتجاهل حقيقة أنه عارٍ حتى الخصر، وأنه يقف على هذه المسافة القريبة منها، وأنه يملك جسداً قوياً يجعل معظم النساء يتحرقن شوقاً إليه. رفعت ناتالي بصرها ثانية وراحت تنظر إلى وجهه.

أهو ملاك أم شيطان؟ فكرت ناتالي أنه يجمع الاثنين معاً، بالإضافة إلى التصميم الذي يجعله مسيطراً، مهما كانت الوضعية التي يجد نفسه فيها.

في تلك اللحظة، لا بد أن الشيطان له اليد العليا!

- حسناً! لنسمع ردك.

تلعثمت قائلة: «أنا آسفة جداً! لقد سلكت الممر الخاطئ من الشاطئ... ووجدت نفسي في حديقتك».

علق بنبرة صوت كسولة: «لكنك لست في حديقتي! أنت في منزلي، تشربين

مائي، وتنشرين الفوضى أثناء وجودك هنا».

- أعلم.

نظرت حولها في الغرفة، متمنية أن تظهر مكنسة بلمح البصر من الهواء، لكن ذلك لم يحدث، فتابعت: «سأنظف المكان، بالطبع».

- لا شك أنك ستفعلين! وأثناء ذلك، أقترح عليك أيضاً أن تفكري بتفسير مقبول لحضورك غير المرحب به إلى هنا. حتى لو كان صحيحاً أنك سلكت الممر الخاطئ من الشاطئ...

توقف عن الكلام ليظهر لها بوضوح أنه لم يصدق ادعاءها، ثم تابع: «... فلا تتوقعي مني أن أصدق أنك ما إن وصلت إلى أملاكي أخطأت بينها وبين ممتلكات جدتك الرائعة المتاخمة لها»

- كيف عرفت أنها جدتي؟

تقدم خطوة أخرى في المطبخ، ولامست ابتسامة مرحة متناهية الصغر فمه قبل أن يقول: «قلما تحدث أمور هنا في الجوار من دون أن أعرف بها».

«إنه برتولوزي... ! قتل والده برصاصة من رئيس عصابة مناوئة...» على الرغم من دخول أشعة الشمس عبر الباب إلى المطبخ مالئة إياه بالدفء، شعرت ناتالي برجفة تعتري عمودها الفقري وهي تستعيد كلام جدتها.

أمسك بها الرجل متسللة إلى منزله، ولا أحد يعرف أنها هنا، وحتى لو كانت قادرة على الصراخ من رئتيها المرتعبتين، فلا أحد سيتمكن من سماعها.

لن تسمح له بأن يعلم أنه يخيفها حتى الجنون. قالت بغطرسة: «أنا متأكدة من ذلك، فأنت لم تخفِ فضولك عند وصولي إلى منزل جدتي ذلك النهار. أخبرني، هل تمضي معظم أوقاتك وأنت تتجسس على جيرانك، أم أنها مجرد صدفة سيئة جعلتك تلاحظ حضوري لحظة وصولي؟»

- أنا لا أؤمن بالصدف أو بأمور من هذا القبيل، كما أنني لا أصدق أنك وصلت إلى منزلي عن طريق الخطأ. إذاً، أخبريني أيتها الأميرة، لماذا أنت هنا؟ وهذه المرة، حاولي أن تلتزمي بالصدق.

إنه رجل ضخم قوي، في أوائل الثلاثينيات من عمره. شعره الأسود

www.elromancia.com

الأجعد القصير يلائم طبيعته وهو يلتمع بالعرق تماماً كبشرته السمراء. لكن ما أثر بها بقوة هما عيناه: عينان ثاقبتان ذات لون أزرق غير عادي، تجعلان كل من ينظر إليهما غير قادر على نسيانهما.

وسيم! إنها كلمة عامة جداً، وهي ليست كافية كوصف له. بالأحرى هي تستطيع القول إنه جذاب مليء بالحماسة، خطر...

- هل أكلت الهرة لسانك أيتها الأميرة، أم أنك تذكرت فجأة أن جدتك حذرتك من التكلم مع الرجال أمثالي؟

الرجال أمثاله؟! ياإلهي! لم تقابل مطلقاً رجلاً مسيطراً مثله! كما أنها لم تشعر يوماً بمثل هذا الانجذاب المغنطيسي القوي تجاه أي رجل.

- لا تظن أنني معجبة بطريقتك أو بموقفك هذا.

صرحت بذلك في محاولة منها لكي تبدو قوية ومنزعجة، لكنها لم تظهر إلا مبهورة الأنفاس ومرتعبة، كما خشيت تماماً. نظر الرجل إلى البعيد وضحك... بطريقة ما.

- إذا كنت قد تلقيتِ تربية رفيعة ومتعالية جداً، فلِمَ لم يخبرك أحدهم أن من العار أن تحدقي بالآخرين؟

تورّد خدا ناتالي من الخجل، فأبعدت نظراتها عن جسمه القوي، وقالت: «لم أكن أحدّق بك»

- بالطبع، كنت تفعلين!

رفع كتفيه بلا مبالاة متخلياً عن فكرة مجادلتها، وسار نحو المغسلة. وضع رأسه تحت حنفية الماء، فاندفع الماء لينساب على شعره ويتساقط على كتفيه.

لم تستطع أن تمنع نفسها.. راحت تراقب كل حركة يقوم بها. إنه رجل يضج بالحيوية أكثر من أي رجل قابلته في حياتها من قبل، ومن المؤكد أنه أكثر رجل شعرت نحوه يوماً بالاعجاب والافتتان.

ذات مرة، وبعد الانتهاء من تناول العشاء مع لويس في منزله، أمسك بها، وهو يقول: «لم لا نصعد إلى الطابق العلوي، عزيزتي؟ ألا تعتقدين أن الوقت حان لإضفاء بعض الشغف على علاقتنا؟».

أدارت ناتالي رأسها وأبعدته عنها قائلة بحزم: «لا! لا أعتقد ذلك!»

يومها شعر لويس بالحرج والانزعاج من رفضها، ومن المحتمل أنه شعر أيضاً بالغباء. ابتعد عنها وسألها بخبث: «لِمَ لا؟ من هو الرجل الذي سيثير إعجابك يوماً، ناتالي؟»

عذرته المساحقة قائلة له بوضوح. لست أنت بالتأكيد.

تمتم بعدها لويس ببضع كلمات معتذرة، ثم عرض عليها أن يعيدها إلى المنزل. والآن فجأة عاد سؤاله إلى البروز في ذهنها: من ذا الذي سيثير إعجابها يوماً؟

سقط الجواب عليها كالصدمة، فخنقت شهقة كادت تفلت من بين شفتيها.

رجل مثلك، سيد برتولوزي!

لم تسمع شيئاً جيداً عنه، لكن غريزتها أنبأتها بالحقيقة: إنه شاب مميز! لم يظهر أي ارتباك في حركاته، كما أنه ليس من النوع الذي يقدم الاعتذارات مطلقاً. وهي تشك، أن تطلب منه أي امرأة الاعتذار.

تحول نظرها من جديد إلى الوجه الإيطالي، وأدركت أنه يراقبها. راحت العينان الزرقاوان الهادئتان تحدقان بوجهها، وتقرآن بوضوح تعابيرها كلها. نقل الرجل نظره بوقاحة من وجهها إلى جسدها، كأنه أدرك ضعفها. تمسكت ناتالي بإطار الباب، لأنها شعرت فعلاً بالضعف في ركبتيها. يا اله السماوات! ما الذي يحدث لها؟ أين إرادتها؟

استعادت سيطرتها على نفسها وقالت بنبرة متصلبة: «أعرف أنني أدين لك باعتذار، و.. فقط من أجل توضيح الأمور، أنا أعرف أن الدخول عنوة والسرقة هما أمران مشينان، تماماً كارتكاب جريمة ما».

رفع حاجبيه إلى الأعلى ونظر إلى السقف، ثم قال بصوته العميق: «مقارنة مثيرة للاهتمام! وهل أنت على اطلاع على أمور تتعلق بالجرائم؟»

ردت بسرعة: «لا! وأنت؟»

خرج السؤال من فمها، ومهما تلعثمت الآن أو ترددت فهي لن تستطيع

www.elromancia.com

نحوه. رفعت يدها إلى شفتيها برعب، وجمدت مكانها. لماذا ذكرت أساساً كلمة جريمة؟ ما الذي دهاها؟

أشاح الرجل بصره جانباً، لكنها تمكنت من رؤية أنه يقاوم بقوة إظهار انزعاجه

- ما الذي تعتقدينه، أيتها الأميرة؟

- أعتقد أنني استغليت ضيافتك بما في الكفاية.

رطبت شفتيها الجافتين بلسانها، وتابعت: «هم... ألديك ما أستطيع استعماله لتنظيف هذه الفوضى؟»

هز رأسه، واختفى عبر الباب الذي ظهر منه، ثم عاد بعد لحظات وهو يحمل مكنسة. أخذتها ناتالي منه بحذر متجنبة أن تلامس أصابعها يده، وبدأت بتنظيف الأرض من الزجاج المكسور.

شعورها بالتوتر جعلها تفشل في القيام بعملها بطريقة جيدة، فراحت تقذف قطع الزجاج بصورة عشوائية بدلاً من تجميعها في مكان واحد لإزالتها في ما بعد. أما القطع الصغيرة فانحشرت بين الشقوق في البلاط، ولم تستطع مطلقاً نزعها رغم محاولاتها المتكررة.

شعرت بالارتباك بسبب نظرته الغاضبة، وتضاعف إحراجها بسبب عدم كفاءتها. تمتمت متلعثمة: «ما الذي تفكره بي؟»

جالت نظرته عليها ببطء بدءاً من قدميها حتى وجهها المتورد، وظهرت ابتسامته المقتضبة من جديد.

- سنيورا! تأكدي أنك لا تريدين أن تعلمي!

لم يحمل التلميح في جوابه أي خطأ، لو أنه اقترب منها وأمسك بخناقها، ما كانت لترتجف أكثر مما تفعل الآن. الأسوأ من ذلك هو أنه شعر بما تفكر به، وازدادت ابتسامته اتساعاً، وهو يتقدم نحوها.

شهقت ناتالي وراحت ترتجف، وفي اللحظة الأخيرة أغمضت عينيها. إنها ليست قادرة على رؤية ما سيحدث، ربما سيسرق قبلة منها، أو يلمسها بطريقة وقحة، أو ربما سيعاملها بعنف أو... يقتلها. هي فقط تريد أن تتحمل ما

سيحدث بشجاعة. يقتلها! تردد صدى الكلمة فعلياً في تجويف دماغها. لقد حذرتها جدتها من هذا الرجل، فلماذا لم تصغ إليها؟

وقفت أمامه وهي تشعر باليأس والخوف معاً. سمعت خطواته الهادئة تقترب عبر البلاط الصخري، وشعرت بحرارة جسده، ثم شعرت بلمسته، فيما لفحت أنفاسه الحارة وجهها...

يدان قويتان تتميزان بالليونة أخذتا المكنسة من يدها، فيما تمتم الرجل قائلاً: «أعتقد أن عليك الرحيل، قبل أن يتسخ بنطلونك النظيف».

* * *

التقطت ناتالي حقيبتها ونظاراتيها، وخرجت كالسهم من الغرفة متجهة إلى الطريق الفرعية المهجورة، ثم إلى الطريق العام، وكأن شياطين الجحيم تطاردها.

لم يدهشه ذلك، فهو يعلم تماماً أنه بالنسبة إلى جيرانه، مجرد آفة في جسم مجتمع لطيف ومحترم. لم ينس أحد ما ارتكبه جده من فظائع، ناهيك عما ارتكبه أجداده لعدة أجيال خلت. مع ذلك، عليه أن يشعر بالخجل من نفسه، لأنه أخافها كما فعل. اتسعت عيناها في وجهها ذعراً عندما اقترب منها، وبدت الصدمة واضحة عليها، حتى إنه اعتقد أنها قد تنهار وتسقط على الأرض مغشياً عليها. للحظة، شعر بالإشفاق عليها، حتى إنه فكر أن يمسك بكتفيها المرتجفتين ليؤكد لها أنه لا يضمر لها أي سوء، لكنه حسناً فعل لأنه لم يقم بذلك. يا إلهي! لم يستطع إلا أن يلاحظ كم هي جميلة. إنها ذات جمال أرستقراطي، بدءاً من ملامحها الأنيقة، مروراً ببشرتها النقية كالبلور، وصولاً إلى شعرها الأشقر الناعم كالحرير.

لو أنه وضع يده عليها، ولو لأسباب إنسانية، فلا شك أن ذلك سيجلب له مشاكل هو بغنى عنها. لم يأتِ إلى فيلا دولفينا ليزيد سمعته السيئة التي ورثها عن أجداده سوء أكثر مما هي عليه. أتى إلى هنا ليبرهن أن الحكم على الرجل يجب أن يتم من خلال ميزاته الشخصية لا من خلال أسلافه.

طوال فترة بعد الظهر، وفيما كان عليه التركيز على تدعيم أساسات الدرج

www.elromancia.com

الأمامي، راحت أفكاره تعود إليها متسائلة عن السبب الحقيقي وراء زيارتها. أما قولها إنها سلكت الطريق الخاطىء فلم يبدُ له أكثر من كذبة شفافة ومضحكة.

ربما أرادت أن ترى أي نوع من الرجال هو، فتنظر إليه عن قرب بعد ما سمعته عنه من أشياء سيئة بلاشك. لكنها لم تتصور أنه سيمسك بها، أو أنه سيقترب منها. على الرغم من تصرفاتها الأنيقة ونظراتها المميزة، لا شيء فعلته أو قالته تمكن من إخفاء البراءة الواضحة في قلبها.

تلك البراءة أسرت أفكاره وخياله، وجعلتها بعيدة بالنسبة إليه. إذا ما رغب بالحصول على امرأة فهناك العديدات لكن أياً منهن لا تتحلى بأية صفة من صفاتها، فهي شابة بريئة جداً ونقية جداً. لحسن حظه أنه يمتلك من الذكاء ما فيه الكفاية ليبعدها عنه قبل أن يؤخذ بها وتستهوية أكثر.

٣ - اصمت وساعدني!

أثناء تناولهما العشاء في تلك الليلة، قالت ناتالي لجدتها: «قمت بزيارة إلى منزل جيرانك اليوم».

رفعت جدتها نظرها متفاجئة.

- عائلة برامبيلاز؟ اعتقدت أنهم مسافرون، وسيتغيبون طيلة هذا الأسبوع.

- إنني اتحدث عن جارك الآخر: السيد برتولوزي.

لو أعلنت ناتالي أنها وجدت أفعى حيّة في طبق الشواء، لما بدت جدتها أكثر اندهاشاً. قالت المرأة المتقدمة في السن بأنفاس منقطعة: «يالإله السماوات! طفلتي.. ما الذي أصابك لتقومي بأمر مماثل؟»

- إنه يثير اهتمامي أيضاً.

- وآل كابوني يثير اهتمامي أيضاً، لكن لو أنه مازال حياً حتى اليوم، وانتقل ليسكن بجواري، آمل أن أمتلك ما يكفي من رجاحة العقل لأبقى بعيدة عنه.

بعد أن استردت أنفاسها من هروبها المخجل ذلك الصباح، أخذت ناتالي الوقت الكافي لتسترجع كل ما حدث أثناء لقائها بذلك الرجل في المنزل المجاور، ووصلت إلى نتيجة مفادها أنه لو كان سيئاً بمقدار عُشر ما سمعت عنه، فقد أعطته فرصة سانحة ليثبت ذلك. وطالما أنه لم يسبب لها أي سوء، فمن واجبها الأخلاقي أن تدافع عنه الآن.

- من الصعب أن أفكر أن السيد برتولوزي وآل كابوني من الصنف ذاته. أعتقد أن خطأه الوحيد هو أنه لم يتخلَّ عن منزله، ولا يمكنني أن ألومه على

www.elromancia.com

ذلك. ما كنت لأتخلى عن ذلك المنزل أنا أيضاً لو كان ملكي.

بتعمد واضح، ألقت جدتها شوكتها، وركزت نظرتها على ناتالي. تلك النظرة التي تجعل موظفي شركات وايد يرتجفون في أماكنهم.

- إنه ليس مثلنا، عزيزتي! هو من النوع الذي لا يرغب أي شخص في هذه المنطقة بأن تكون له صلة به.

- وكيف تعرفين ذلك؟

رمتها جدتها بنظرة تخبرها بوضوح ما تفكر فيه بشأن ذلك السؤال السخيف، أجابت وهي تلفظ كل حرف بصبر مبالغ فيه: «أخبرتك بذلك من قبل. إنها حقيقة معروفة تماماً، فعائلته على علاقة..».

- بالجرائم المنظمة. صحيح، فأنا لم أنسَ بعد.

- وهل تتذكرين ما أخبرتك به عن جده و...؟

- أتذكر كل كلمة قلتها. لكن ما علاقة ذلك كله به؟

- حسناً، عزيزتي..!

قوست باربرا حاجبيها وهي تتابع: «... من النادر أن تسقط تفاحة بعيداً عن شجرتها».

- كيف يمكنك قول ذلك من دون أن تنفجري بالضحك؟ اهتمامات أمي الوحيدة هي لقاء صديقاتها على الغداء، وإبقاء مفكرتها مليئة بالمواعيد واللقاءات، أما بالنسبة إلى والدي، فهو لا يعرف الفرق بين السند والكفالة، ولا يهمه حتى أن يعرف. لكن هذا لم يمنعك من أن تأملي بأن تحلّ ابنتهما الوحيدة مكانك كرئيسة لشركات وايد العالمية في يوم من الأيام.

- لأننا نحن أشخاص مختلفون.

- لا! لسنا كذلك. لدينا خزانة ملأى بالهياكل العظمية أيضاً.

- لا أحد منا يشبهه، ناتالي. القتل، الابتزاز، التهديد والاحتجاز... هذه الأمور لا وجود لها في تاريخنا.

- الجد الأكبر لعائلة وايد كان مقامراً.

- نعم، لكنه لم يخدع أحداً.

في تلك اللحظة، لم تستطع ناتالي إلا أن تنفجر بالضحك، غير مصدقة ما تسمعه.

- هل تصغين إلى ما تقولينه؟ كان هذا الرجل يستغل الضعفاء من الناس ويسحب منهم رزق أطفالهم! يقال إن أحد هؤلاء المساكين شنق نفسه لأنه خسر كل مالديه بالمقامرة مع إدغار وايد.

- أولئك الرجال كانوا أحراراً في الابتعاد عن جدك في أي وقت يريدون. إن كانوا قد تصرفوا بحماقة فليست تلك غلطة جدك الأكبر.

- هذا ما أريد قوله بالتحديد! ليست غلطة السيد برتولوزي أن والده وجده مجرمان.

مسحت باربرا زاوية فمها بالمنديل، واتكأت على الطاولة، ثم قالت باهتمام: «اسمعي، ناتالي! عانت عائلات كثيرة في هذه المنطقة بسبب عائلة برتولوزي، أمهات شعرن بالخوف والرعب على بناتهن، أزواج سلبت منهم زوجاتهم، آباء تعرضوا للتهديد بشكل لم يترك لهم أي خيار للرفض... أناس تعرضوا للذل والمهانة لكي يتمكنوا من العيش من دون خوف على حياتهم، وأبناء اختفوا من دون أي تفسير، ولم يسمع عنهم مطلقاً بعد ذلك، ومنازل أحرقت بطريقة غامضة».

- ذلك كله حدث منذ وقت بعيد جداً، جدتي.

- بدون شك! لكن مازال الناس يتذكرون.

قالت ناتالي: «بالطبع، يتذكرون. من يستطيع نسيان مآسٍ من هذا النوع؟ لكنني أؤمن بمقولة: الإنسان بريء حتى تثبت إدانته. وحسب علمي، لم يفعل السيد برتولوزي أي شيء يثير الشبهة. آه! ما دمنا نتحدث عنه جدتي.. ما اسمه الأول؟ أرى من السخافة أن نستمر في استخدام لقب السيد عند الحديث عنه».

- لست متأكدة من اسمه... ربما داميانو أو اسم مشابه. برأيي، بما أن هذا الرجل هو حفيد ذلك الشيطان، فمن السخافة أن نتحدث عنه أصلاً.

- إن عدم التحدث عنه لن يرغمه على الرحيل.

www.elromancia.com

- قد يحدث ذلك.

- لا، جدتي! ليس هذا الرجل. لا أظن أنه شخص يهتم لما يقوله الناس عنه.

- حسناً! وماذا عنك، ناتالي؟ هل حاولت التفكير قليلاً أن تصورك له كبطل قد يؤثر على مصداقيتك كرئيسة لشركات وايد العالمية في المستقبل؟

- آه.. ! من فضلك!

حركت ناتالي يديها باشمئزاز قبل أن تتابع: «أنا أتحدث فقط عن التصرف بلطف معه بحكم الجيرة، لا عن تقديم تنازل عن حصة من الشركة له».

- لن يرى الآخرون الأمر بهذه الطريقة. عدد من أصدقائي وجيراني هنا يملكون أسهماً في شركة وايد العالمية. أنت مازلت يافعة وعديمة التجربة، عزيزتي. لكن مع ذلك يجب أن تعلمي أن زعزعة الثقة بين عدد من مالكي الأسهم قد يؤدي إلى نتائج ضارة جداً. إن إقامة أية علاقة مع هذا الرجل هي مخاطرة حقيقية بالنسبة إليك.

في تلك اللحظة، تحولت هذه المحادثة بالنسبة لناتالي إلى انزعاج كامل، وقالت: «أنا لا أريد إقامة أية علاقة، حباً بالله! كل ما أقترحه..».

ماذا تقترح بالتحديد؟ أتقترح بأن تدعواه في أحد الأيام لتناول القهوة؟ أم تقترح أن يتبادلا المعلومات بشأن تشذيب الزهور فوق جدار الحديقة؟ إن كان هذا كل ما تفكر به، فلماذا تشعر بالحرارة تجتاحها كلما ذكر اسمه. آه.. ! حسناً! لماذا يجب أن يذكر اسمه منذ البداية؟

تأملتها باربرا منتظرة جوابها وسألتها: «ماذا؟»

- لا شيء.

هزت رأسها، لعدم قدرتها على فهم سر اهتمامها المطلق بذلك الرجل، فيما هو لم يظهر أي اهتمام بها.

- أنت محقة، جدتي. أعتقد أنني بحاجة إلى الخروج، والتعرف على الناس أكثر.

* * *

حثها إدراكها ذلك، على قضاء الأسبوع التالي في زيارة تريسا لامبرت، وهي صديقة لها منذ أيام الدراسة، تعمل الآن في حقل الإعلام، وتعيش في روما. وتناولتا الغداء في مطعم فاخر يقع في أحد أشهر المواقع التي تقام فيها عروض الأزياء، وتجولتا في معرض للفنون افتتح منذ وقت قريب في مدينة الفاتيكان.

عندما تذهب تريسا إلى العمل، كانت ناتالي تمضي الوقت بالتجول في المتاجر وبزيارات متكررة إلى المواقع السياحية المفضلة لديها. أما في الأمسيات، فتخرجان مع أصدقاء تريسا حيث يسهرون في أفخر الأمكان فيتناولون العشاء ويتبادلون الأحاديث، ويمضون أوقاتاً مسلية. أصدقاء تريسا هم رجال جذابون، ساحرون، وسيمون، لا عيب فيهم، كما أنهم مثقفون واسعو الأطلاع ومناسبون جداً، لكن في النهاية لم يترك أي منهم لدى ناتالي أي انطباع يميزه عن غيره من الرجال.

حيتها جدتها عند عودتها إلى فيلا روزا موندا، قائلة: «حسناً! هل أمضيت وقتاً مميزاً؟»

- ورائعاً أيضاً.

قالت ذلك مع أنها في الحقيقة لم تعد تطيق صبراً للعودة إلى آمالافي بسرعة.

- همم... ماذا أيضاً؟

- ماذا؟

- هل قابلت شخصاً أثار اهتمامك؟

- في الواقع فعلت. جارة تريسا التي تسكن في الشقة المقابلة امرأة عجوز رائعة.

- تعلمين جيداً أنني غير مهتمة بالسماع عن السيدات العجائز. أنت تتلاعبين بي، ناتالي!

اعترفت ناتالي بإشراق وفرح: «هذا صحيح!».

فجأة علا صوت المنشار الكهربائي المزعج من المنزل المجاور، فبدا لأذني ناتالي كعزف موسيقي رائع. تابعت: «تعلمت ذلك منك جدتي، فقد علمتني

www.elromancia.com

بطريقة جيدة فعلاً».

* * *

بعد مرور عدة أيام، تلقت ناتالي مكالمة هاتفية من مالك متجر للفنون في بوستيانو، أخبرها فيها أن المطبوعة الأثرية التي اختارتها من أجل إهدائها لأمها لمناسبة عيد ميلادها قد تم وضع إطار لها، وأصبحت جاهزة للتسليم.

بدا النهار رائع الجمال، وفكرت ناتالي أنها أمام خيارين: إما أن تأخذ واحدة من السيارات الرياضية أو أن تطلب من سائق جدتها أن يوصلها. إلا أن ناتالي قررت التخلي عن كلا الخيارين والذهاب سيراً على القدمين، قاطعة مسافة الثمانية كيلومترات لتصل إلى البلدة، فالرياضة مفيدة جداً لها، كما يمكنها أيضاً أن تنعم بالسلام والهدوء وهي في طريقها إلى هناك، وتمتع ناظريها بالمناظر الطبيعة الرائعة الجمال.

على خلاف الطريق التي سلكتها، كانت بوستيانو تعج بالسياح، لكن ذلك لم يقلل من سحر الفيلات المطلية بألوان مختلفة، والمنتشرة فوق تلالها. بعد أن استلمت اللوحة المطبوعة، زارت متجراً للثياب بعد أن لفت نظرها عرض لقبعات كبيرة تحمي من أشعة الشمس، وخرجت منه معتمرة قبعة واسعة زينت حاشيتها بعدد من الزهور الحمراء اللون. في تلك الأثناء قررت أن ترتاح وتتجنب حرارة منتصف النهار، فاختارت مطعماً ذا شرفة مطلة على البحر.

بعد أن تجاوزت الساعة الثانية والنصف، انطلقت عائدة إلى منزلها، لكن ما إن قطعت ثلث المسافة تقريباً حتى انقطع رباط حذائها. لم تكن تحمل شيئاً تستطيع ربطه بواسطته على قدمها، وهكذا راح الحذاء يتأرجح حول كاحلها. وكأن ذلك لم يكن كافياً لإسدال غيمة على ذلك النهار الرائع، اكتشفت ناتالي بعد قليل أن هاتفها النقال لا يعمل بسبب نقص في شحنة الطاقة، ما منعها من الاتصال بأحدهم ليقدم لها المساعدة. مازال أمامها أكثر من خمسة كيلومترات لتقطعها عبر ممر لم يصمم ليسير المرء عليه حافي القدمين، لذا لم يبق لديها خيار آخر سوى المرور بصعوبة عبر الأشجار الكبيرة لتصل إلى الطريق العام. لم يكن ذلك عملاً سهلاً، لكنها أملت على الأقل، أن تلتقي بشخص رقيق العاطفة،

يوقف سيارته بمحاذاتها ويعرض عليها المساعدة. مرّت حافلة سياحية أمامها، يتبعها عدد من السيارات، إلا أن سائقيها بدوا منشغلين بتركيز انتباههم على المنعطفات اللولبية أمامهم، فلم يستطيعوا إبعاد نظراتهم عن الطريق لرؤية امرأة وحيدة تقف على جانبها. مرت عشرون دقيقة ولم يحالفها الحظ بعد بتوقف سيارة بالقرب منها، فبدأت ناتالي تمشي بتثاقل نحو البيت. إلا أنها ظلت تلتفت كلما سمعت صوت سيارة تقترب آملة أن تتوقف بقربها، لتجد نفسها بعد ذلك وحيدة من جديد.

أخيراً، بعد أن تخلت عن انتظار حدوث أعجوبة ما، سمعت صوت شاحنة تبدو محملة بأشياء ثقيلة ما يجعلها تسير ببطء تقترب منها من وراء المنعطف. خشيت ناتالي أن تمر هذه الشاحنة أيضاً بها من دون أن تتوقف أيضاً إن اكتفت برفع إبهامها بتهذيب طلباً للمساعدة، لذلك أمسكت بقبعتها، ولوحت بها بقوة لتجذب انتباه السائق.

أخيراً نجحت.. ها قد رآها السائق فأوقف السيارة بعد أن تجاوزها بمسافة قصيرة. اعتمرت قبعتها بسرعة، وأمسكت المطبوعة جيداً، وسارت قفزاً إلى حيث تقف الشاحنة، فيما فتح السائق لها باب الشاحنة. في تلك الأثناء، أصبحت تسير وهي تعرج بشكل واضح، بسبب الحرارة اللاذعة المنبعثة من الرصيف ومن الجرح الذي بات مؤلماً في قدمها اليسرى.

ما إن وصلت إلى الباب المفتوح قالت وهي تلهث: «شكراً لك! أنت أنقذت حياتي»

سألها السائق: «هل أنت متأكدة؟ عندما التقينا من قبل راودني انطباع أنك تظنينني قاتلاً مأجوراً».

غاص قلبها بين ضلوعها لدى سماعها ذلك الصوت. بدا شعرها ملتصقاً برأسها، وقميصها الرطبة ملتصقة بظهرها، أما وجهها... آه! هي لا تريد أن تعلم كيف يبدو وجهها. يكفيها ما تشعر به من حرارة وتوهج.

جلس السائق بتكاسل وقد ألقى ذراعه فوق مقود السيارة، أما الذراع الأخرى فألقاها على ظهر المقعد المجاور المغطى بالقينيل. وها هو من جديد،

www.elromancia.com

يرتدي بنطلون جينز أزرق قديماً، ولا يرتدي قميصاً. صاحت به ناتالي: «هيه، أنت.. ماخطبك؟»

تابعت بغضب وهي تبعد نظرها عن عضلاته المشدودة: «هل عليك دائماً أن تتجول مستعرضاً جسدك؟»

أجابها: «فقط عندما أتوقع أن من سترائي ستتأثر بمنظري».

لم يحاول مطلقاً أن يبدي أي تحفظ وهو يتأملها بنظراته المتفحصة.

- حسناً! هذا خبر جديد لك، سيد برتولوزي. أنا لست متأثرة على الإطلاق.

كانت هذه كذبة واضحة للعيان، بالطبع!

جال بنظره عليها، ثم قال معلقاً: «وأنا أيضاً لست متأثراً. أعرف أن أولاد الملوك لا يتميزون عادة بالذكاء، لكن حتى عديمي الذكاء منهم يعلمون أن عليهم أن يتعلوا أحذية رياضية إن قرروا التنقل سيراً على الأقدام».

- انقطع رباط صندالي.

- الصندال لا يعتبر حذاء رياضياً.

- أنا لست من النوع الذي اعتاد تسلق الجبال.

- ومن أنت إذاً، أيتها الأميرة؟

- لن أقف هنا طوال النهار، لأصغي إليك وأنت تلقي علي محاضرات. هل ستقلني إلى المنزل، أم لا؟

- ولأي سبب آخر تعتقدين أنني توقفت هنا؟

قالت بغضب: «إذاً، اصمت وساعدني كي أصعد إلى الشاحنة».

حاولت جاهدة أن تجد ما تتمسك به، لكي ترفع جسدها المتعب إلى داخل الشاحنة. انحنى الرجل قليلاً، وأطبق بيده حول رسغها، وشدها بقوة جعلتها تسقط كالكومة على المقعد المجاور مستلقية بوجهها عليه تقريباً.

- يا إلهي!

خرجت أنفاسها من فمها كالشهيق.

علق بهدوء: «قليل من الشكر يكفيني، وسأقدر لك صنيعك إن أظهرت

بعض الاحترام لمرافقي».

جلست ناتالي باستقامة، ثم رفعت قبعتها عن أرض الشاحنة وهي توشك أن تسأله عن أي مرافق يتحدث. وسرعان ما وقع نظرها على كومة متجمعة بقربه. رأت كلباً صغيراً لا يزيد عمره عن الشهرين، وقد لفه الرجل بقميصه، فيما راح الكلب ينظر إليها باستغراب. فقط عناية الله جنبتها السقوط عليه.

قالت وهي تحمل الكلب الصغير لتضمه إليها وتضعه تحت ذقنها: «آه كم أنت رائع!».

لم يستطع هذا المسكين الصغير بعظامه البارزة إلا أن يتحرك بضعف وبئن من الألم. شعرت بضلوع ذلك المخلوق المسكين حتى من فوق قماش القميص، أما ما ظهر من وبره الأسود فبدا مليئاً بالأوساخ.

أبعدت جزءاً من القميص لتعاينه بصورة أوضح، ثم نظرت إلى منقذها بنظرة منتقدة وقالت: «هل هذا الكلب لك؟»

- ولمن هو إن لم يكن لي؟

- إنه نحيل ومليء بالبراغيث وربما بحشرات أخرى أيضاً. إنه أكثر حيوان مهمل رأيته في حياتي، وهو بحاجة إلى طبيب بيطري. منذ متى تتعهد هذا المسكين؟

- منذ عدة ساعات.

رماها بنظرة عاجلة، وتابع بهدوء: «وإذا كان الأمر يهمك، فهو يعبث بقميصك».

- عدة ساعات فقط؟!

تفاجأت مما سمعته، واختارت أن تتجاهل ملاحظته المرحة الأخرى، فتابعت: «حسناً! لم تقل لي ذلك؟»

- لأنك لم تسألي.

هزت رأسها وهي تزفر بانزعاج.

- حسناً! إذاً كان هذا هو أسلوبك في الحديث، أجبني عن سؤالي: «من أين حصلت عليه؟»

www.elromancia.com

تجهم وجهه، وقال: «وجدته في صندوق من الكرتون في زقاق في نابولي»

- أتقول إنك أنقذت حياته؟

- هذا صحيح!

تنهد بقوة وتابع: «يبدو أن يومي هذا مخصص لالتقاط المشردين».

ردت بسخرية: «يا للأمر المسلي!».

لامست بأنفها الكلب الصغير، ثم مررت إصبعها على رأسه وهي تقول: «هل كان وحده في الصندوق؟»

نظر إليها متعجباً للحظة قبل أن يسألها: «ألا يكفي كلب واحد؟»

- أعتقد أنه يكفي..

ترددت للحظة قبل أن تتابع: «لاحظت أنك تتحدث اللغة الإنكليزية بطلاقة واضحة، مع مسحة من اللكنة الأميركية».

- أهذا ما ترينه؟

- أنت لست مستعداً لتقديم أية معلومات عنك، أليس كذلك؟

ظهرت ابتسامة ساخرة على شفتيه، قبل أن يجيب: «ما من داعٍ لذلك أيتها الأميرة. فلا بد أنك سمعت من جدتك الثرية كل ما يتعلق بي، وما يمكن أن يقال عني أيضاً».

- ليس كل شيء.

وطبعت قبلة على الأنف الصغير الأسود، وهي تتابع: «هي لا تعرف أنك تقوم بمساعدة الكلاب التائهة».

رماها بنظرة حارة وقال معلقاً: «وهي لا تعرف أنك تركبين شاحنتي أيضاً. تخيلي ما ستكون عليه ردة فعلها عندما تعرف بذلك، أم أن هذا سيبقى سراً بيننا نحن الاثنين؟»

- بالطبع لا! فأنا راشدة بما فيه الكفاية، ولست بحاجة إلى طلب الموافقة على كل ما أفعله من جدتي.

أبعد نظره إلى الناحية الأخرى وأطلق زفرة استياء غير مصدق ما سمعه.

- إن كان هذا ما تريدينه.. أيتها الأميرة!

- هذا ما أريده! وأرجو أن تكف عن مناداتي بذلك الاسم... اسمي ناتالي.

غرق الرجل أكثر في مقعده، وراح يحدق أمامه من خلال الحاجب الزجاجي.

دفنت ناتالي موجة أخرى من الغضب في أعماقها، وقالت: «وأنت تدعى داميانو. أهذا صحيح؟»

- لا! خطأ.

صرت بقوة على أسنانها، سألت: «ما اسمك إذاً؟»

- أتقصدين أن جدتك لم تخبرك؟

- ما كنت لأسأل لو أنها أخبرتني. كل ما أعرفه هو أنك من عائلة برتولوزي.

- في هذه الأرجاء، هذا أكثر من كافٍ.

انعطف عن الشارع العام المزدحم، وسار عبر الطريق الخاص الطويل الذي يؤدي إلى المنطقة المطلة على البحر.

- أين تريدين أن تنزلي؟

- أمام أبواب فيلا جدتي، بالطبع!

رفع كتفيه بلا مبالاة وعلقت: «ظننت أنك لا ترغبين بأن يراك أحدهم برفقة العدو».

- أنا لا أعتبرك أبداً عدواً، سيد برتولوزي. بالنسبة لي، أنت ببساطة رجل يعيش في المنزل المجاور، ولديك استعداد كبير للشجار والقتال.

علت فمه شبه ابتسامة قبل أن يقول: «وأنت امرأة مزعجة ومتشبثة برأيك».

- انا امرأة تشعر بامتنان كبير لأنك مررت من هنا. ما كنت لأستطيع مطلقاً العودة إلى المنزل سيراً على قدمي.

- في المرة التالية، اصنعي معروفاً مع نفسك واستعملي جزءاً من ميراثك الضخم لشراء حذاء رياضي.

www.elromancia.com

حدقت ناتالي إليه بانزعاج، وقالت: «ما الذي تعرفه عن ميراثي؟».

أجاب: «يمكنك أن تتصوري ما أعرفه بنفسك».

وابتسم مرة ثانية واحدة من تلك الابتسامات التي باتت معروفة لديها.

- الكلام ينتشر بسرعة، وكل شخص في هذه المنطقة يعرف أنك الحفيدة الوحيدة للسينورا وايد، وأنها تنفق في يوم واحد ما يكفي لإطعام شعب نابولي كله سنة كاملة المعكرونة والبندورة.

- لم أفكر أنك من الأشخاص الذين يصغون إلى الثرثرات العقيمة.

- عليك ألاّ تفكري بي على الإطلاق!

أخبرها بذلك، وهو يوقف شاحنته أمام بوابة فيلا روزا موندا الحديدية المزخرفة، وأردف متابعاً: «جدتك ليست الشخص الوحيد الذي تتمنى لو أنني أختفي عن سطح الكرة الأرضية. اسألي أي شخص هنا وسيخبرك أنني نذير شؤم، وأنك تعرضين نفسك للخطر في التورط معي».

تجاهلت ناتالي كيف تسارعت دقات قلبها: «أنا لا أشعر بأي خوف منك».

قال بنبرة سطحية: «عليكِ أن تخافي».

- شكراً على تحذيرك، لكن إذا كنت حقاً تريد الاحتفاظ بسمعتك الرديئة، عليك أن تتوقف عن إنقاذ الكلاب التائهة، فهذا لا يناسب مطلقاً الصورة التي تعمل جاهداً على إظهارها.

طبعت قبلة أخيرة على رأس الكلب الصغير، ووضعته بلطف قرب صاحبه الجديد، وتحركت لتقفز إلى الطريق، فارتطم إصبع قدمها الحافية بحافة صندوق خشبي طويل موضوع تحت المقعد.

صرخت متألمة: «أوه. ماذا لديك في هذا الصندوق؟».

أجاب بصوت أجش تظهر فيه التسلية: «بندقية! لإبقاء المتجولين بعيداً عن أرضي. من الأفضل لك أن تراقبي خطواتك في المستقبل».

- لا أصدقك!

لم يتمالك الرجل نفسه وضحك بطريقة عفوية قبل أن يقول: «هذه غلطة

أيتها الأميرة».

- لا أعتقد ذلك. أنا أعتبر نفسي جديرة حقاً بالحكم على الأشخاص، وأنت لا تشكل خطراً على المجتمع كما تحاول أن تظهر.

قفزت من الشاحنة، واعتمرت قبعتها، ثم وضعت اللوحة تحت ذراعها وتابعت: «شكراً لك من جديد على صنيعك، سيد برتولزي».

وبينما كادت تغلق باب الشاحنة، قال الرجل: «بالمناسبة.. اسمي ديمتريو».

ظهرت على وجهها ابتسامة كبيرة واسعة.

- ديمتريو!!

إنه اسم قوي ومليء بالفخر والكبرياء لرجل قوي وفخور جداً!

تركها تتحدث مع نفسها، وأدار المحرك منطلقاً بالشاحنة عبر الطريق الفرعية إلى حيث البوابات الصدئة لمنزله.

لم ينتظر ليتأكد أنها أصبحت بأمان داخل المنزل، فقد أضاع ما يكفي من الوقت لأجلها فيما هناك الكثير من المسائل الملحة التي تحتاج إلى اهتمامه، كإصلاح السقف لمنع تسرب المياه. عليه أن يفعل ذلك في أقرب وقت ممكن، إن كان يريد الحفاظ على طلاء سقف غرفة النوم الرئيسية. كما يجدر به سد بعض الثقوب في الجدران، وتغيير شبكة الأنابيب الداخلية، وشبكة الأسلاك الكهربائية... قائمة أعماله لا نهاية لها. والآن ها هو قد أضاف إليها الاعتناء بهذا الكلب الصغير. ياإلهي! إنه بحاجة إلى من يصلح له رأسه المتعب.

أوقف الشاحنة خارج المرآب الذي يستعمله الآن كمشغل، ثم حمل الكلب إلى مكان صغير مسقوف يقع بالقرب من باب المطبخ، ووضع له وعاء صغيراً ملأه بالماء، ثم راح يبحث عن قفص ليستعمله كمقر مؤقت له ريثما يصنع له مسكناً ملائماً في الحديقة. لم ينقذ ذلك المسكين من الموت المحتم في نابولي ليتركه يهرب من أرضه.

بعد أن تأكد أن الكلب بخير، عاد إلى الشاحنة وبدأ بتفريغ الحمولة، بدأ بالصندوق الذي كان قد وضعه تحت المقعد المجاور المعقد السائق. إنه ليس

www.elromancia.com

بندقية أيتها الأميرة! إنه رف للأواني في المطبخ.

مجرد التفكير بها دفعه للابتسام، وساوره إحساس غريب لم يعد مألوفاً لديه في الفترة الأخيرة. فكر أنه عندما يكون بقربها، لا يستطيع أن يبقى عابس الوجه. من الأفضل له أن يركز على معرفة سبب شعوره بالتسلية عندما يلتقي بها، بدلاً من التفكير بما يشعر به نحوها.

من المحتمل أنها تظنه أحمق، لأنه جلس يراقبها، بدلاً من أن يعرض عليها المساعدة لتنزل من الشاحنة. ومن المحتمل أيضاً أنها تعتبره متخلفاً من الناحية الاجتماعية، لأنه أبقى الحديث بينهما في حده الأدنى، لكن الحقيقة ليست كما تبدو للعيان. لقد عرف العديد من النساء في حياته، لكنها لا تشبه أية واحدة منهن، فما من امرأة أثارت لديه أحاسيس كتلك التي تثيرها فيه هذه المرأة بالذات. وهو لا يعرف بالتحديد كيف يمكن أن يتعامل مع تلك الأحاسيس. فعل خيراً إذ قرر عدم البوح لها بأي شيء، والالتزام بالصمت والوقار، مع أن كل خلية من خلايا جسده تثور عليه معترضة على ذلك.

وبدأ بتفريغ كومة ألواح الخشب التي وضعها في صندوق الشاحنة. كان الوقت متأخراً بعد ظهر ذلك اليوم، وحرارة الشمس قوية إلى حد قد يصيب من يعمل في تلك الأثناء بضربة شمس، لكنه لم يهتم لذلك مطلقاً. استمر بالعمل حتى شعر بالإنهاك، ظناً منه أن هذه هي الوسيلة الوحيدة ليبعدها عن أفكاره. لكن على الرغم من جهوده كلها، بقي وجهها متشبثاً بعناد في مخيلته، وظلت هي تشغل أفكاره.

إنها من سلالة أصيلة، تاريخها معروف لعدة أجيال. لا مجال مطلقاً للشك بذلك. لكن ما يجعلها لا تنسى لا علاقة له بنسبها أو بجمالها ونعومتها أو بلباقة تصرفاتها. إنها الطريقة التي تعاملت بها مع الجرو الصغير. قامت باحتضانه وراحت تدندن له كأنه كلب أصيل، ولم تهتم مطلقاً للفوضى والأوساخ التي تركها على ثيابها الأنيقة الباهظة الثمن.

عندما ذكر لها أين وجد ذلك الجرو المسكين سألته إن كان وحيداً في الصندوق. لقد كذب بطريقة ما في جوابه، لأنه أدرك أنها ستشعر بالألم إن

علمت أنه وجد ثلاثة كلاب أخرى، وكلها ميتة.

تباً! لقد شعر بالألم هو أيضاً. الفرق بينهما، هو أنه تعلم منذ وقت طويل جداً كيف يتعامل مع كل ما تحمله الأقدار إليه، وهو يشك بأن تكون لها المقدرة نفسها على التعامل مع الألم. الحقيقة ببساطة، هي أنها أكبر بقليل من ذلك الجرو الصغير. ربما هي تنتمي إلى سلالة أفضل، لكنها بريئة وناعمة مثله، وهو لا يستطيع تحمل الاعتناء بهما معاً في وقت واحد. من الأفضل له أن يبعدها نهائياً عن أفكاره وعن حياته، وألاّ يدعها مطلقاً تقترب منه... لكن الكلام أسهل من الأفعال.

www.elromancia.com

٤ - هل تبحث عني؟

اسمي ديمتريو!

كلمتان فقط، وضعتا حداً لأي فكرة قد تراود ناتالي بتجاهله. أتراها تستطيع تجاهله، على أي حال؟ وهل يسهل نسيان رجل وسيم مثله، يحوط به الغموض والخطورة؟ كما أن وجود كلب تائه ضمن ذلك الغموض كله، لا يساعد في جعلها محصنة كي لا تقع في شباكه.

استيقظت ناتالي في صباح اليوم التالي على صوت مطرقة قادم من المنزل المجاور، يصلها عبر أبواب غرفة نومها المفتوحة. تساءلت ما الذي يجعل هذ الرجل مميزاً، فمما بدا لها حتى اليوم، هو أنه غير ملتزم بعمل ما، يعيد بناء تلك الفيلا على الرغم من ذلك الخراب الذي يسودها. أما شاحنته، فعلى الرغم من أنها تقوم بمهامها، لكنها قديمة جداً.

استنتجت ناتالي أنه يسافر كثيراً، أو أنه مثقف جداً، دلها على ذلك طلاقته في التحدث باللغة الإنكليزية. لكن جسده القوي يدل على أنه عاش حياة تتطلب عملاً جسدياً قاسياً. ربما حصل على تلك البنية الجسدية القوية وهو في السجن، حيث عمل وهو مقيد بالسلاسل في النهار، ودرس اللغة الإنكليزية في الليل.

آه، مهلك! وبخت نفسها بشدة لتفكيرها هذا. إنها ليست أفضل من أي شخص آخر، فهي تفترض الأسوأ عنه.

لاحظت جدتها انشغال بالها وهما تتناولان الفطور، فقالت: «تبدين شاردة الذهن تماماً، عزيزتي».

فكرت ناتالي للحظة، ثم قررت أن لا جدوى من إخفاء الأسرار، فقالت:

«حدث أمر ما البارحة!».

- أعرف. أوصلك ذلك الرجل برتولوزي من البلدة إلى المنزل.

- وهذا أمر لا يسعدك مطلقاً. أليس كذلك؟

- بالطبع، هذا لا يسعدني. فبالإضافة إلى غرابة اللقاء بينك وبين ذلك الرجل، فأنت مازلت شابة جداً، ومن الخطورة أن تقضي وقتاً بمفردك مع رجل مثله.

- إنني في الخامسة والعشرين، حباً بالله! أنا كبيرة بما فيه الكفاية.

- ومع ذلك، أنت مازلت طفلة عندما يتعلق الأمر بذلك المخلوق برتولوزي. العمر ليس مجرد عدد يقل أو يكثر من السنوات، ناتالي. إنه يعتمد على مدى الخبرة في الحياة. بالنسبة لهذا الرجل، فإن خبرته في الحياة أمر لا يرغب أحد بمعرفته، أما أنت فلا خبرة لديك على الإطلاق.

التقت نظراتها بنظرات جدتها الثابتة، ومن دون أن يرمش لها جفن، قالت ناتالي: «ليس عليك الموافقة على كل شخص أرافقه جدتي، لكنني أطلب منك أن تحترمي حقوقي باختيار أصدقائي من دون أن تتأكدي من أسمائهم».

ظهر على وجه باربرا إعجاب لم تستطع إخفاءه.

- حسناً! أنت تذكرينني بنفسي عندما كنت في العشرينيات من عمري. كنت أعمل المستحيل لأقوم بما أريد القيام به، ولم أبالِ مطلقاً بالصعاب التي كانت تعترض طريقي.

ابتسمت ناتالي مظهرة حبها الكبير للمرأة الوحيدة التي اعتبرتها بطلتها على الدوام.

- كنت واثقة من أنك ستنظرين إلى الأمور من وجهة نظري.

- لا تتوقعي مني أن أدعو الرجل إلى العشاء في أي وقت قريب. و. . . حباً بالله! تمسكي بقليل من الحكمة في تصرفاتكِ. معاملة الرجل بشيء من المجاملة أمر، والوقوع في غرامه أمر مختلف تماماً.

- في الحقيقة، أنا واقعة في حب كلبه لا في حب هو.

- لم أكن أعلم أن لديه كلباً.

ضحكت ناتالي: «إذاً، مازال هناك بعض الأشياء التي لم يلتقطها رادارك، في نهاية الأمر».

- ذلك صحيح. أي نوع من الكلاب لديه؟

- ما زال كلبه جروراً صغيراً، وهو ضعيف جداً، فكرتُ في شن غارة على المطبخ، لأجمع بعض فضلات الأطعمة لذلك المسكين. لست متأكدة من أن دمتريو يستطيع إطعامه بشكل جيد.

أدركت ناتالي غلطتها في اللحظة التي تفوهت فيها باسمه. وبالطبع، تمسكت جدتها بتلك الكلمة بسرعة تفوق سرعة هرة في القفز على فأر. سألتها بضيق وإنزعاج: «آه! أصبح الرجل دمتريو الآن. أليس كذلك؟

- لا داعي لأن تصابي بأزمة قلبية، جدتي. كل ما في الأمر، أن هذا هو اسمه، ما من شيء غير عادي في هذا الأمر. كل شخص يملك اسماً خاصاً به، كما تعلمين.

أصدرت جدتها شخرة تدل على شعورها بالضيق، ما جعلها تدرك أنها استغلت كل ذرة من الصبر لديها، فتمتمت: «أفكر في السباحة قليلاً في البركة، فالجو حار جداً هنا».

نهضت ناتالي مبتعدة عن الطاولة، وسارت بسرعة لتخرج من الغرفة على غير عادتها بالسير بأناقة ودلال.

* * *

عندما سارت ناتالي في الممر المليء بالحفر في الجهة الخلفية لمنزل دمتريو، بعد ظهر ذلك اليوم، وجدته جالساً على الأرض وقد أسند ظهره إلى الجدار اتقاء لأشعة الشمس، وهو يتشارك قطعاً من الخبز والجبن مع كلبه.

- فكرت أنك قد ترغب في تقديم هذا الطعام له.

رفعت الغطاء عن الوعاء البلاستيكي الذي تحمله، ليرى الحساء المعد من اللحم والخضار.

تجاهل دمتريو الطعام واقتراحها معاً، ونظر إليها من تحت رموشه السوداء الكثيفة، ثم قال بصوت عميق أجش: «هل تساورك رغبة بالموت، أو شيء من

هذا القبيل يا امرأة؟».

للحظة، شعرت ناتالي برجفة من الخوف تجتاحها، ثم قالت: «ما الذي تريد قوله بالتحديد؟»

- إذا أصريت على التجول بالقرب مني، فإن سمعتي السيئة سوف تسيء إليك، فتصبحين امراة غير مرحب بها في سهرات المجتمعات المخملية، حيث تعتبر جدتك ضيفة دائمة.

استعمل دمتريو عبارتي «المجتمعات المخملية» و«جدتك ضيفة دائمة»، بينما كان بإمكانه القول، ببساطة، لن تتم دعوتك إلى الحفلات التي تذهب إليها جدتك العجوز. إن استخدام تلك اللغة المتقنة الخالية من الأخطاء اللغوية لا توافق مطلقاً فكرة السفاح الذي يقوم بالأعمال الشريرة.

شعرت أنها تتصرف بحماقة فعلاً، ورغبت في الجلوس كي تشعر بالارتياح. لم تنتظره حتى يدعوها إلى ذلك، بل جلست بالقرب منه، تاركة بينهما مسافة كافية بحيث لا يكون هناك أي تلامس جسدي بينهما، لكنها كافية لجعلها تشعر بالهالة التي تحيط به.

راح الكلب يدور ويقفز حول قدميها كأنه يتوسلها كي تنظر إليه. حملت الكلب ووضعته في حضنها، ثم عادت إلى الموضوع الذي سبق لها أن طرقته في وقت سابق، فقالت: «من علمك اللغة الإنكليزية، دمتريو، نجح في عمله بشكل واضح».

- أحقاً؟

أبعد نظره عنها، وقد لمعت عيناه بالمرح.

- أنت تجد كلامي مسلياً. أليس كذلك؟

- بل أجدك أنت مسلية، أيتها الأميرة.

لامست الكلب بأنفها، وحفت رأسها به وهي تقول: «وأنا أجدك مثيراً للاهتمام. من المحتمل أنك لا تريد سماع ذلك، لكنني معجبة بك أيضاً».

أدار رأسه كي يتمكن من النظر إليها مباشرة، واختفت كل علامات المرح والتسلية من وجهه.

www.elromancia.com

- لا حاجة لك مطلقاً إلى الاعجاب بي، ولا حاجة لك أيضاً إلى التجول في أملاكي كلما شعرت بالرغبة في ذلك.

- ولِمَ لا؟

شعر دِمتريو بالضيق فأطلق زفيراً قوياً، ثم قال بنفاد صبر: «لأنك لا تملكين أدنى فكرة عمّا تقحمين نفسك فيه.

- هذا ما أخبرتني به جدتي هذا الصباح بالتحديد، وها أنا هنا بكل الأحوال.

- عليكِ أن تصغي إلى جدتك هذه المرة، فهي تعرف تماماً ماالذي تتحدث عنه. فتاة مثلك لديها فرص كثيرة لاختبار ماهوأفضل.

أشار لها بيده راغباً في إنهاء التحدث عن الموضوع، قبل أن يتابع قائلاً: «يجب أن تعلمي أن من الأفضل لك ألا تضعي عينيك على رجل مثلي!».

- حسناً! أولاً، أنا لست فتاة، بل أنا امرأة راشدة. ثانياً، أتيت لأحضر طعاماً لهذا الكلب الصغير، لأن هذا عمل محبب بين الجيران، وليس لأنني أريد عذراً لأتمكن من إيقاعك في شباكي كي أتزوج بك. وثالثاً، إن العائلة التي توقع والداي أنني سأتزوج ابنها قررت أنني لست جيدة بما فيه الكفاية له، لذلك لا تزعج نفسك بالتحدث بكلام لا قيمة له عن انتمائنا إلى عالمين مختلفين، لأنني لا أصدق مثل هذا الهراء.

- أتقولين إن هنالك شاباً، سليل عائلة محترمة لم يرغب في الزواج بك؟

هزّ رأسه غير مصدق، ولمعت عيناه من جديد بالضحك، وهو يتابع: «لِمَ لا؟ هل يفتقر هذا الشاب إلى صفات الرجولة الحقيقية؟».

لم تستطع أن تمنع نفسها من الاستمتاع بالإطراء المبطن في كلامه، قالت: «هل هذا يعني أنك معجب بي، دِمتريو؟».

نظرت عيناه الزرقاوان بسرعة إلى وجهها، وظهرت الحدة والتوتر في أعماقهما، ما جعلها تستشعر ارتعاشاً على امتداد عمودها الفقري. أعلمها دِمتريو بكل وضوح: «بل هذا يعني أن الطيور على أشكالها تقع، أيتها الأميرة»

- أصبحت هذه وجهة نظر قديمة الطراز في عصرنا هذا. ألا تعتقد ذلك؟

- أحقاً؟ في الواقع كدت أن تخدعيني!

ضحكته جذبت نظرها إلى وسامته، فابتلعت ناتالي غصة وقالت: «إذا كان بعض الناس هنا لا يريدون التعرف إليك، فذلك لا يعني أن الجميع لديهم الشعور نفسه. أنا لست معتادة على إدانة الرجل بسبب الصفات التي يطلقها عليه الآخرون. وأفضل أن أحكم عليه من خلال تجربتي الشخصية».

لامست الكلب بأنفها، وتابعت: «أنا أعرف أن خلف مظهرك القاسي هذا يكمن رجل رقيق الشعور، وهذا الكلب الصغير خير دليل على ذلك»

- غلفي الحقيقة بأي غلاف خيالي تختارينه، لكن لا شيء سيغير حقيقة أنني الشخص الوحيد المتبقي من سلالة عائلة إيطالية شريرة، وأنك أميركية من سلالة عريقة.

وضع مرفقيه على ركبتيه ونظر إلى السماء متابعاً: «وهذا يعيدنا إلى القول القديم عن الزيت والماء، أيتها الأميرة. حتى لو وضعتهما معاً فإنهما لن يمتزجا أبداً».

لاحظت ناتالي أن شيئاً ما ربما مسمار، أو قطعة قاسية من الخشب المنشور قد أحدثت خدشاً كبيراً في ذراعه، ما ترك آثار دماء جافة على بشرته السمراء. متجاهلة خطورة ما تفعله، مررت إصبعها بخفة على الجرح، وقالت: «بالحديث عن الماء و... هل غسلت هذا الجرح وطهرته؟».

توترت العضلة تحت إصبعها، وكانت تلك العضلة الوحيدة التي تحركت في جسمه كله. أما تبقى من جسمه، فبدا كانه نحت من الغرانيت. سيطر على المكان صمت مليء بالتوتر، ولم تعد تسمع إلا دقات قلبها المضطرب.

أدركت أن عليها التوقف عن لمسه، لكنها أحست كأن إصبعها منجذب إلى ذراع دِمتريو بقوة مغنطيسية خارجة عن سيطرتها. أصابها الذهول وراحت تحدق بيديه اللتين تتميزان بالأناقة والقوة، على الرغم من الشقوق والقشور البادية عليهما. فأصابعه طويلة مصقولة ورسغاه قويان، تميزهما أناقة مدهشة. ما إن مرت تلك اللحظة المربكة، أطلق دِمتريو شتيمة، وأمسك معصمها بقبضة من حديد. تنفست ناتالي بقوة، كأن جسدها بكامله انتفض ممتلئاً

بالحياة، بل كأن مجرد لمسة واحدة، حتى لو لم تكن لمسة ودودة، أيقظت في داخلها إحساساً قوياً سيقضي عليها في نهاية الأمر. أيقنت بقوة أنه شعر بذلك هو أيضاً. أدار وجهه نحوها. قال بصوت عميق: «أنت حقاً تحبين اللعب بالنار، أليس كذلك؟ إلى أي مدى أنت مستعدة للاحتراق قبل أن تتعلمي درسك؟»

سيطر عليها إحساس مؤلم بالشوق إليه، جعلها تهمس بتهور: «لا أعرف. لِمَ لا تعلمني؟»

للحظة، اعتقدت أنه سوف يعانقها، ويلف ذراعيه حولها، وأدركت أنها لن تتردد في مبادلته العناق. إلا أن دمتريو بدد كل ما نسجته من خيالات وأفكار حوله، حين أبعدها عنه بقوة، وقفز واقفاً على قدميه.

- سوف أخبرك لماذا. لأنني أمتلك خططاً تتعلق حياتي، وتلك الخطط لا تشملك مطلقاً.

لو أنها تمتلك ولو جزءً صغيراً من كبرياء عائلة وايد الشهير، لرمته بنظرة تحوله إلى شخص عقيم لا جدوى منه، وسارت مبتعدة من دون التفوه بأية كلمة تحط من قدرها. لكن يبدو أنها لم تشعر بالإهانة بشكل كاف، لأنها بدلاً من ذلك، أشارت إلى وعاء الطعام الذي أحضرته معها وقالت معترضة: «لكن ماذا عن هذا الطعام؟ بالطبع أنت لا تريد أن ترميه»

قالت ذلك وكأن ما أحضرته تحفة فنية لا تقدر بثمن، لا مجرد بقايا طعام. بدا أنها مستعدة للقيام بأية تضحية، وتحمل كل إهانة، في سبيل الإبقاء على روابط الاتصال مع هذا الرجل.

ما الذي أصابها، بحق الله؟

أجال بصره في ماحوله، ورمى ما تبقى في فنجان قهوته فوق كومة من الأوساخ، ثم أشار برأسه نحو المطبخ القديم المتداعي، وقال: «إن كان الأمر يهمك إلى هذه الدرجة، ضعيه هناك قبل أن تغادري. سيأكله الكلب في وقت لاحق».

بعدئذ، وقبل أن يتسنى لها الوقت الكافي كي تجيبه، اختفى دمتريو خلف

الفيلا، سائراً بخطى واسعة كأنه يقفز قفزاً.

على الرغم من إنكاره لما يشعر به نحوها، إلا أن سرعته في مغادرة المكان فضحته. أما ناتالي فقد راقت لها فكرة أنه يهرب مبتعداً عنها. بعد مرور دقيقة واحدة، علا صوت المنشار الكهربائي ليملأ المكان، واضعاً حداً لأمنيتها الهزيلة بإمكانية عودته.

حملت فنجان القهوة الفارغ ووعاء الطعام، وسارت إلى المطبخ، بينما راح الكلب يتراقص عند قدميها. كانت بقايا من غداء دمتريو ما تزال على الطاولة المؤقتة الموضوعة في وسط المطبخ: قالب من الجبنة، قطع من اللحم المجفف المدخن، نصف رغيف من الخبز ووعاء من الزيتون. بالإضافة إلى إبريق القهوة الموضوع فوق الفرن.

جالت ناتالي بنظرها على كل ما في المطبخ، وهزت رأسها باستياء. يجب إعادة الطعام إلى البراد وإزالة الأطباق الوسخة، قبل أن تصبح مسرحاً للذباب الذي يتز عند النافذة. وهكذا بدأت العمل على الفور.

باحت بما تفكر به إلى الجرو الصغير، الذي كان منشغلاً بمهاجمة قدميها عند كل خطوة تقوم بها.

- بالطبع، أنا لا أتوقع منه أن يشكرني، لكنه يستحق أن يعود إلى مكان خالٍ من الفوضى، بعد هذا المجهود المضني الذي يبذله تحت أشعة الشمس الحارقة طلية النهار.

حرك الجرو ذيله القصير موافقاً، وسار نحو وعاء الماء. سرعان ما قفز إلى داخله، فشرب منه وهو يرش الماء في كل الاتجاهات، بعدئذ سار نحو الطاولة تاركاً وراءه بقعة من الماء، شعرت ناتالي كأنها مجبرة على مسحها. كانت قد قررت في الواقع أن الغرفة كلها بحاجة إلى تنظيف، فآثار الغبار والأوساخ المندفعة من الحديقة تملأ المكان، فيما يتجمع الكثير منها بين شقوق البلاط المكسور وثقوبه.

لم تفكر مطلقاً في التجول في المنزل، لكن عندما اختفى الكلب عبر الباب الذي يؤدي إلى بقية أنحاء المنزل، لم تجد ناتالي أمامها خياراً سوى اللحاق به

www.elromancia.com

لإعادته. لاحظت أن دمتريو بنى حظيرة في زاوية المطبخ، ما يدل بوضوح على أنه لا يريد للكلب الذي أنقذه أن يهرب من المنزل.

طاردت الكلب الصغير عبر ممر واسع، فوصلت في النهاية إلى قاعة كبيرة محاذية لمدخل صغير حيث يقع الباب الرئيسي للمنزل. لاحظت أن أرضها مغطاة برخام من اللونين الأبيض والأسود، بحيث تبدو كرقعة كبيرة من الشطرنج، وهي واسعة إلى درجة تصلح معها لإقامة حفلة تضم مئة شخص وربما أكثر. في وسط القاعة علقت ثريا بسلسلة تتدلى من السقف المرتفع، وقد بدت رائعة الجمال بالرغم من الغبار الذي يغطيها. إلى يمينها تصل إلى ما يشبه الشرفة الداخلية، تتفرع إلى جهات ثلاث، تصل جميعها إلى الطابق العلوي، وتنتهي عند بهو مخصص للفرقة الموسيقية فوق الباب الرئيسي.

في الجهة اليسرى من القاعة، هنالك مدخل تعلوه قنطرة وهو يؤدي إلى غرفة واسعة من المحتمل أنها غرفة الطعام الرسمية، إذ رأت ناتالي خزائن مليئة بالخزف الصيني تغطي جداراً بأكمله، إلى جانبها مكتبة ذات رفوف من الزجاج. أما قبالة الدرج فهنالك قاعة استقبال أنيقة وواسعة. احتوت هذه الغرف الثلاث على مدافئ من الرخام، وهي ذات أبواب زجاجية تطل على الشرفة المسقوفة. تجولت ناتالي من غرفة إلى أخرى، والكلب يسير وراءها، وهي تشعر بالإثارة والحزن معاً لرؤية ذلك المنزل الرائع الجمال على هذه الحالة من الإهمال.

بدت السقوف مزينة بلوحات من الجصّ باهتة الألوان، وقد أحاطت بالمدخل الذي تعلوه قنطرة من الرخام. أما الأبواب المواجهة للشرفة فهي ذات إطارات مزخرفة بطريقة فنية رائعة، إلا أن ناتالي لاحظت الثقوب الواضحة في الجدران، وألواح القرميد المحطمة في وسط المدافئ، والألواح الخشبية المنزوعة من أماكنها. إذا كانت حالة هذه الغرف الثلاث تعكس الحالة العامة للفيلا، فكم من المؤلم بالنسبة إلى دمتريو أن يعود إلى هذا المنزل من جديد! كيف تراه يأمل بأن يتمكن من ترميم هذا الخراب كله بمفرده؟

سارعت ناتالي إلى الامساك بالجرو واقتربت من الشيء الوحيد الذي بدا

بمنأى عن كل خراب ودمار. في قاعة الاستقبال تلك وإلى جوار المدفأة وضعت صورة كبيرة لعروسين بالأبيض والأسود، إطارها من اللون الذهبي القاتم. تدل الثياب التي يرتديها العروسان، أن هذه الصورة التقطت في أواسط الخمسينيات. بدت العروس جميلة جداً، وهي في حوالى العشرين فقط من عمرها. شعرها أسود وعيناها سوداوان آسرتان، إلا أن تعابير غريبة ظهرت في ملامحها البريئة، كما بدا فمها مألوفاً بشكل غريب بالنسبة لناتالي. أدركت على الفور أن هذا الفم يشبه فم دمتريو، فركعت على ركبتيها لتتمكن من معاينة الصورة من مسافة أقرب.

تأملت صوة العريس وسرعان ما شعرت برجفة تسيطر عليها. جعلتها ملامح ذلك الرجل تجفل، حتى من خلال صورة بهتت ألوانها بسبب تعرضها لأشعة الشمس لوقت طويل. كان الرجل يحدق إلى عدسة آلة التصوير بنظرة باردة كالثلج، نظرة رجل مجرد من الدفء الإنساني. بدا طويل القامة، شديد الوسامة، لكنه لا يحمل أي أثر للحياة في محياه.

تأثرت ناتالي بما تراه عيناها إلى درجة لم تدرك معها أنها لم تعد بمفردها، إلى أن رأت ظلاً يسقط على الأرض أمامها. توقعت أن تسمع توبيخاً قوياً على وجودها في مكان لا يحق لها التواجد فيه، فقفزت واقفة على قدميها، وهي تشعر بالذنب لدرجة أنها تركت الجرو يسقط من حضنها. لكن الرجل الذي دخل الغرفة عن طريق الأبواب المزدوجة المفتوحة على الشرفة، لم يكن دمتريو!

إنه رجل قصير القامة، رمادي الشعر، ذو شارب أنيق، وهو يبدو في أواخر الستينيات من عمره. يرتدي بذلة عاجية اللون، ويحمل قبعته الكبيرة بيده.

ابتسم الرجل، فبدت سنه الذهبية. فكرت ناتالي بسرعة أنه يبدو أشبه بأحد أفراد عصابة ما، أو أنه ينتمي إلى عالم هوليود أكثر من انتمائه إلى ساحل أمالافي. خنقت ضحكة كادت تفلت منها هي أقرب إلى ضحكة هستيرية، إذ لم يكن هناك شيء مسلٍ في هذا الشخص الذي ينبعث منه عبق الشر والإجرام.

- بونا سيرا

التحيه التي أطلقها بصوت هامس جعلت دمها يتجمد في عروقها بصورة لا إرادية. انحنت لتمسك بالجرو، لكن الفضول الطبيعي للحيوان الصغير جعله يتملص منها ليسير نحو الرجل الغريب كي يقوم باستكشافه. سبقها الرجل إليه، فانحنى والتقط الكلب من مؤخرة عنقه ثم رفعه عالياً. تلوى الجرو المسكين بين يديه معترضاً، وراحت قوائمه تتحرك في الهواء.

شهقت ناتالي، وكادت تختنق من الخوف. قالت: «أعطني إياه!»

- بالطبع، سنيورينا!

بدا التهديد واضحاً في رده الناعم وفي ابتسامته الخبيثة وفي كل حركة يقوم بها. مدّ الرجل يده ولوح بالجرو عالياً في الهواء. أدركت ناتالي، بدون أدنى شك أن حياة ذلك المخلوق الصغير باتت معلقة بخيوط واهية، فهذا الدخيل الذي لا تستطيع ابتسامته إخفاء الشر الواضح في وجهه، لن يفكر للحظة في ترك ذلك الحيوان برفق، بل سيرميه دون شفقة محطماً عظامه على الأرض عند قدميها.

قالت تتوسله: «من فضلك، لا تسبب له الأذى».

أرجح الرجل الجسم الصغير إلى الأمام وإلى الوراء كرقاص الساعة، وقال بنبرة صوت هامسة: «ولِمَ لا؟»

* * *

بعد الانتهاء من عمله الشاق وضع دمتريو المنشار جانباً، وفكر في التوقف عن العمل لفترة، وبالسباحة في البركة لبعض الوقت. لكن عندما أدار رأسه إلى الجانب الآخر ليمسح جبهته بظاهر يده، لاحظ السيارة المتوقفة تحت الرواق المحاط بالأعمدة عند مدخل الفيلا، وهي سيارة طويلة سوداء اللون، نوافذها مظللة. لاحظ دمتريو بانزعاج أنها تشبه سيارة من الطراز نفسه، اعتاد أن يراها في الفيلا عندما كان يعيش هنا وهو ولد صغير.

اقترب من الجهة الأمامية للمنزل، فسمع أصواتاً منبعثة من النوافذ المفتوحة في قاعة الاستقبال: صوت رجل يتكلم بنبرة خافتة، إلا أن نبرته تبدو مهلكة، أما الصوت الآخر فهو صوت نسائي يملؤه الخوف.

إدراكه أن ناتالي لم تغادر المكان كما افترض، جعله يشعر بالرعب حتى كاد يسقط على ركبتيه. فجأة بدأ بالركض مجتازاً الدرج الأمامي، قاطعاً ثلاث درجات في كل خطوة، وامتلأ فمه بطعم أشبه بطعم النحاس لخشيته من أن تصاب بأذى بسببه. سوف يقتل ذلك الرجل إن حصل لها أي مكروه.

دفع تلك الفكرة جانباً، وهو غير قادر على مواجهة ذلك الاحتمال. إنها لجوجة، متطفلة ومزعجة كالجحيم، لكنها أيضاً شابة جميلة وفاحشة الثراء، وهذا يجعل منها رهينة مثالية لمن تسول له نفسه مثل تلك الأساليب الملتوية. فكر أنه إن دخل كالسهم إلى هناك، مليئاً بغضب مدمر، فسوف يقحمها في وضع أشد خطورة مما تواجهه الآن.

عليه أن يؤجل اندفاعه البطولي إلى وقت آخر، أما الآن فهو بحاجة إلى التركيز والهدوء.

رأى في الداخل شخصين فقط: ناتالي وذلك الرجل الغريب الذي لم يتعرف عليه. لم يسمع أي منهما وقع خطواته وهو يقترب، فقد كانا منشغلين ببعضهما. شعر أن ذلك الزائر يضمر خبثاً وشراً أكيدين، أما ناتالي فتحاول السيطرة على خوفها، ولم تلاحظ مطلقاً أن شخصاً ثالثاً انضم إلى الاجتماع.

دخل دمتريو إلى الغرفة بهدوء، وهو يحمل مطرقة بيده. اقترب من الرجل الذي كان يدير ظهره له، ثم ربت على كتفه، وسأله ببرودة: «هل تبحث عني، سنيور؟».

٥ - أي خطر أكبر؟

وحده الصمت أجاب عن سؤاله، ناسجاً حول الأشخاص الثلاثة عش عنكبوت سام، ينذر بتهديد غير معلن. أدار الرجل رأسه قليلاً، وقال: «بالطبع، سنيور برتولوزي. لكنني قابلت زوجتك الجميلة بدلا منك».

شعر دمتريو بشيء مألوف ولو بشكل غامض في ذلك الرجل جعله يحس بالانزعاج والاستياء معاً. رمى الزائر بنظرة ثاقبة، وعلق قائلاً: «السيدة ليست زوجتي... إنها ضيفتي. لذا دعها تأخذ كلبها، وسنتحدث بعدئذ بأي أمر تريده مني».

ابتسم الرجل، إلا أن ذلك لم يجعل منظره مفرحاً. تمتم وهو يتابع تحريك الكلب بعيداً عن يديها: «بالطبع! تفضلي، سنيورينا. كله لك».

تحركت ناتالي غير واثقة، وما إن ظهر عليها التردد، حرك الجرو بطريقة شريرة، وقال بصوت يحمل نبرة شيطانية: «خذيه!»

قال دمتريو بصوت هادئ، من دون أن يبعد نظره لحظة عن الرجل: «افعلي ما يقوله لك، ناتالي!»

استجمعت قوتها، وأسرعت بالتقدم نحوه. أخيراً تمكنت من إمساك الجرو ما إن أسقطه الزائر من يده. تصاعد الأدرينالين في دم دمتريو مالئاً صدره بفورة من الغضب، لكنه قال لها: «والآن، من فضلك دعينا بمفردنا، وخذي الكلب معك».

أطاعته ناتالي، فضمت الجرو إلى صدرها، وهي ترتجف بقوة، وسارت مبتعدة. لم تعرف كيف تمكنت من الإمساك بالكلب، ناهيك عن وضع قدم أمام الأخرى لتتمكن من الخروج من الغرفة.

راقبها حتى أصبحت بعيدةً عن الأنظار وعن سماع ما سيتحدثان به، قبل أن يعيد انتباهه من جديد إلى الزائر.

- أنت تعرف اسمي، سنيور. فيما لا فكرة لدي مطلقاً عن اسمك.

أجاب الرجل: «كاتانسكا.. غيدو كاتانسكا».

تجاهل دمتريو اليد الممدودة إليه، وقال بنبرة سطحية: «لا فكرة لدي مطلقاً عن سبب وجودك في منزلي، سنيور كاتانسكا. لكن أقترح عليك أن تغتنم هذه الفرصة جيداً، لأنك شخص غير مرحب بعودته إلى هنا ثانية».

ابتسم كاتانسكا ورفع كتفيه قبل أن يقول: «قد تبدل رأيك، عندما أخبرك بما أريده».

- أشك بذلك كثيراً.

- أحقاً؟

ابتسم كاتانسكا من جديد، ثم لوى شفتيه قليلاً تحت شاربيه المتأنقين، وتابع: «أنت لم تتعرف علي، أليس كذلك، دمتريو؟»

- وهل يجب أن أعرفك؟

- حسناً! نحن التقينا من قبل، مع أنك كنت ماتزال ولداً صغيراً في ذلك الوقت. كنت أزور جدك في مناسبات عدة، فقد كنا صديقين مقربين، ولطالما أمضيت برفقته أوقاتاً مسلية تحت ظلال تلك الشرفة في الخارج.

- بما أنك كنت صديقاً لجدي، فعدم الترحيب بك أصبح مضاعفاً، لأنني لا أشاركه ذوقه في اختيار الأصدقاء.

- آه، لا داعي لأن تشعر بالإهانة، أيها الشاب! أنا لست مؤذياً، كما أنني أشد نزاهة مما كان عليه أوفيدو في ذلك الزمن. فأنا أعمل في تجارة الأراضي منذ سنوات عديدة، وأكثر أعمالي استثمارية في الوقت الراهن. في الواقع أنا هو الرجل الذي أتاح لجدك شراء هذا المنزل، وهذا الأمر جعله يشعر بالامتنان لي بصورة دائمة.

شك دمتريو في أن يكون جده قد شعر يوماً بالامتنان لأي مخلوق على الأرض لأجل أي شيء.

www.elromancia.com

- وما سبب وجودك هنا الآن؟

قال كاتانسكا، وهو ينظر بلامبالاة إلى أظافره: «أتيت لأقدم لك عرضاً. إنني راغب في شراء هذه الملكية، وسأدفع لك مبلغاً جيداً».

- إذاً، أنت تضيع وقتك. هذه الأملاك ليست للبيع.

ضحك كاتانسكا بنعومة وقال: «ولدي العزيز، كل شيء قابل للبيع عاجلاً أم آجلاً. الأمر ببساطة يتعلق بالسعر وبقدرة الشاري على الدفع».

- ربما يكون ذلك صحيحاً في عالمك، لكن ليس في عالمي أنا.

تمتم كاتانسكا، وهو ينظر إلى أظافره نظرة أخيرة: «عنيد! تماماً مثل جدك، لكنك لا تملك ذكاءه، كما أرى»

مقارنته بجده، فجرت غضب دمتريو، لوح بطريقة مهددة، كأنه يؤكد ما يقوله: «أقترح عليك مغادرة هذا المكان الآن، قبل أن يصبح النقاش مزعجاً. ولكي أوضح ما قلته جيداً: أنت شخص غير مرحب به هنا سنيور كاتانسكا، لا اليوم، ولا غداً، ولا في أي يوم آخر، مطلقاً!»

أجابه كاتانسكا بنبرة مهدئة: «لا داعي لأن تهددني باستعمال العنف، دمتريو».

مع أنه شعر بالحذر الكافي ليتراجع خطوة إلى الوراء، قبل أن يتابع: «على العكس مما تظنه، لا تتم الأعمال بهذه الطريقة، هذه الأيام. لكن قبل أن تصرفني وكأن ما قلته لك لا أهمية له، انظر حولك للحظة، وقل لي: «كيف تتوقع أن ترمم هذا المكان بمفردك؟»

جاهد دمتريو للسيطرة على غضبه. رفع ذقنه ونظر إلى الثقوب في الجدران وإلى الألواح الخشبية المنزوعة، فيما تابع الرجل يقول:

- واجه الأمر بواقعية، يا صديقي الشاب. أنت تنفق المال سدى في هذا المكان، وإن استمريت في عملك هذا، ستنزف حتى الموت. لذلك أكرر مرة ثانية: كن ذكياً، وفكر بعرضي من جديد.

- لن يحصل ذلك في حياتي هذه. والآن، اخرج من أملاكي قبل أن أكسر أنفك.

- يا إلهي! أعتقد أن جدك كان ليفخر بك في النهاية فما زال هناك أمل فيك بني.

- لكن لا أمل لك أنت، كاتانسكا لن أسمح لك بالحصول على هذا المنزل، أو على الأرض المحيطة به.

- أهذه هي كلمتك الأخيرة؟

- إنها كلمتي الأخيرة!

- إذاً، أتمنى لك الحظ السعيد.

- لست بحاجة لأي حظ.

- جميعنا بحاجة إلى الحظ، أيها الشاب المشاكس العنيد، فالحوادث تحصل دوماً، ومن يعلم أين أو متى ستحصل في المرة القادمة؟

مرر كاتانسكا يده على عمود من الرخام قربه، وتابع: «قطعة أثرية جميلة، ومن المؤسف أن يراه المرء يتدمر. فقد يحدث أمر سيئ يطيح بكل ما تفعله، فيذهب جهدك وعملك القاسي سدى»

أدرك دمتريو من دون أي شك أن الأمر ليس مجرد فكرة محتملة، بل هو إنذار صريح.

إنه يعرف جيداً ما سيكون عليه رده فعل جده لو أنه مازال حياً. تماماً مثل أي فرد من أفراد عائلة برتولوزي: العنف، والعنف فقط. وستظهر جثة كاتانسكا في مكان ما على الشاطئ مع رصاصة في جبهته. يستطيع دمتريو المتابعة من حيث توقفوا، فيقاتل كما قاتلوا، كما يستطيع أن يبقى وفياً للعهد الذي قطعه على نفسه منذ أربعة عشر عاماً، فينتصر للعدالة والحياة الشريفة. لم يتردد لحظة واحدة في اتخاذ قراره: سوف يبقى دائماً على العهد الذي أقسم عليه!

- غادر أرضي حالاً، كاتانسكا. الآن!

لوى كاتانسكا شفتيه المتجعدتين، ولمس حافة قبعته الكبيرة الباهظة الثمن، وقال: «لا داعي لأن تشعر بالتوتر والحنق، بني. سأغادر. لكن إن كنت أستطيع تقديم نصيحة قبل رحيلي، أقترح عليك أن تراقب ضغط دمك، وأن

www.elromancia.com

تتبنى نظرة أكثر إيجابية للحياة كلها بشكل عام. وداعاً!»

* * *

تمتمت ناتالي، وهي تجلس على الأرض بالقرب من الحاجز الذي بناه دمتريو للكلب: «لا بأس، أصبحت بأمان الآن».

لكن من تحاول طمأنته ليس الجرو بدون أي شك، فهو نائم بين ذراعيها براحة وأمان متجاهلاً حقيقة أن حياته كانت في خطر مرة أخرى. في المرتين، عليه أن يشكر دمتريو على إنقاذه إياه.

تابعت بيأس: «الهررة تحظى عادة بتسع حيوات لا الكلاب».

حتى صوت ثرثرتها بدا أفضل لها من الإصغاء للنقاش الدائر في القاعة. بدا صوت الزائر مليئاً بالمكر والدهاء رغم برودته، أما صوت دمتريو العميق فينضح بالغضب.

- أنت صغير جداً ونحيل لتتمكن من الدفاع عن نفسك، حتى لو كنت تملك أكبر أقدام رأيتها لجرو. عليك أن تكون أذكى من ذلك، إن كنت تريد البقاء حياً. لا يمكنك الركض نحو أي شخص كان مفترضاً أنه صديقك. فهناك الكثير من الأشخاص السيئين في هذا العالم، صغيري!

- من الأفضل أن تبدأي باتباع نصائحك بنفسك.

قال دمتريو ذلك بحزم، وهو يسير بخطى واسعة داخل المطبخ.

- لقد قابلتِ للتو أسوأ رجل يمكن أن تلتقي به. رجل كهذا يمكن الوثوق به بمقدار الوثوق بأفعى سامة ملتفة على عنق ضحيتها.

بحذر شديد، وضعت ناتالي الكلب على الغطاء الموضوع داخل الحاجز، كي لا تزعجه. ثم وقفت على قدميها.

- لمَ أتى إلى هنا؟

- الأمر الأكثر أهمية، لمَ أنت هنا؟ ألم اطلب منك أن تغادري؟

- اعتقدت.. أنك قصدت فقط أن أنتقل إلى غرفة أخرى.

قال بنبرة سطحية: «إذاً، أخطأت باعتقادك».

- لم أرغب في ترك الجرو بمفرده. ذلك الرجل شرير، دمتريو! كان يجب

أن ترى كيف أمسك بالكلب. خشيت أن يسبب الأذى فعلاً لذلك المسكين الصغير.

- من حسن حظك أنه لم يفعل، مع أنني لا أعتقد أنه سيتورع عن إيذائه.

- هل هو صديقك؟

تردد صوت ضحكة دمتريو في أرجاء المكان، ضحكة مليئة بالمرارة..

- لست بائساً إلى هذه الدرجة، لكنه يدعي أنه كان صديقاً لجدي.

شعرت ناتالي بارتجافة من البرد تسيطر عليها، فضمت ذراعيها إلى صدرها وقالت: «إنه شرير! يمكنني أن أشعر بالشر ينضح منه تماماً كما ينتشر الضباب في شهر تشرين الثاني البارد».

- وهذا سبب كاف يدعوك للبقاء بعيداً، أليس كذلك؟

- لست خائفة على نفسي، فالرجل أتى إلى هنا سعياً وراءك أنت.

أرادت ناتالي أن تتخلص من التوتر والقلق اللذين شعرت بهما فاقتربت منه، ومرة ثانية خاطرت بإثارة غضبه عندما وضعت يدها على ذراعه.

قالت: «لم أتمكن من سماع كل ما دار بينكما من حديث، لكنني فهمت أنه أطلق نوعاً من التهديد».

ارتجفت من الاشمئزاز والانزعاج وهي تتابع: «بدا التهديد واضحاً في صوته. وأعتقد أنه يجدر بك إبلاغ الشرطة».

مرة ثانية، وبسبب ملامسة يدها، شعر دمتريو بالتوتر يسيطر عليه.

- وماذا أقول لهم؟ إن امرأة بالكاد تعرفني تشعر بالقلق وتخشى ألا أتمكن من الدفاع عن نفسي؟

- حسناً! ماذا لو كنت فعلاً غير قادر على الدفاع عن نفسك؟ ماذا لو لم تستطع مواجهة رجل مثله؟

اعترت رجفة بشرتها من جديد وهي تتابع: «قد يبدو لك أنني ميلودرامية، لكنني أعتقد أنه لص كبير ومجرم».

حرك دمتريو عينيه بطريقة مسرحية.

- توقفي عن هذا الكلام، أيتها الأميرة. أنت تخيفينني!

www.elromancia.com

- يمكنك السخرية قدر ما تشاء مما أقوله، لكنني أثق بحدسي. الرجل الذي يقدم على إخافة جرو صغير، لا يتورع عن ارتكاب أي نوع من أنواع الشر.

هذه المرة، أظهر ديمتريو نوعاً من الاستجابة لملامستها. لامس خدها بأصابعه الطويلة القوية، وهو يقول بلطف: «ناتالي! اهدئي. انت تسمحين لخيالك بالذهاب بعيداً. صحيح أن الرجل مزعج حقاً، لكنه ليس مجرماً، ولن يأتي لمطاردتي في منتصف الليل حاملاً خنجراً. إنه رجل أعمال مشهور في هذه المنطقة، ولديه سمعة يريد الحفاظ عليها، حتى لو كان رجلاً سيئاً».

- لكن.. لمَ أتى إلى هنا؟

- يريد أن يشتري منزلي.

- وهل ستبيعه إياه؟

- لا!

- هل سيعمد إلى مضايقتك من جديد؟ هل تعتقد أنه سيفعل؟

نطقت بالسؤال وفمها يرتجف، فيما عاد الخوف الذي اعتقدت أنها سيطرت عليه ليعذبها بمرارة وقوة.

- قد يفعل.

تابع ديمتريو بصوت قاسٍ كالفولاذ جعل عمودها الفقري يرتجف من التوتر: «مهما يكن الأمر، سأكون مستعداً له».

- وماذا ستفعل؟ هل تفكر باستخدام المنطق معه؟

لفت أصابعها حول معصمه، وهي تشعر بالارتجاف في داخلها.

- لا أريد أن تتعرض للمشاكل مع رجل مثله. لا أريد أن يحدث لك أي سوء، ديمتريو.

سادت لحظة مليئة بالتوتر. لم يتحرك ديمتريو خلالها، ولم يتكلم. بعدئذ وضع يده فوق يدها وشدها إليه. ثم تمتم وهو يرميها بنظرة تلتهب بألسنة من النار الزرقاء: «فات الأوان الآن! أنت ما يحدث لي أيتها الأميرة، وهذا أسوأ ما يمكن أن تصل إليه الأمور».

في وقت سابق من هذا النهار، عندما كانا جالسين معاً في الخارج، اعتقدت ناتالي أنه سيعانقها، وشعرت بخيبة أمل كبيرة لأنه لم يفعل. أما الآن، فلم تتوقع شيئاً. فجأة أمسك بها ديمتريو، وعانقها بقوة جعلتها تنسى ماجرى بينهما من نقاش ورفض وحذر. عانقها عناق رجل يشعر بشغف كبير وحاد، عناق أذاب عظامها بحرارته ولهيبه. لو عاشت ناتالي لتصبح عجوزاً في المئة من عمرها، فإن هذا العناق سيبقى محفوراً في ذاكرتها. استجابتها له بمثل هذا الشوق أمر لا قدرة لها على السيطرة عليه.

في هذه اللحظة بالذات، لا شيء يهمها! كل ما تريده، هو المزيد من عناقه. تساءلت بانبهار: أهذا ما يحدث عادة لأي رجل وامرأة يواجهان الخطر؟ مع تصاعد الشوق في داخلها، توقفت عن التبحر في تلك الأفكار الجنونية. فما الفائدة من ذلك، فأفكارها كلها مشتتة، تخضع لسيطرة عواطفها.

امتلأت أذناها بحفيف الريح بين الأشجار، وأدركت أنها ستصاب بالدوار، فتمسكت بقوة بقميص ديمتريو كي تحافظ على توازنها.

ابتعد ديمتريو عنها فجأة، إذ وجد أن من الحكمة أن ينقذها من نفسها ومنه. تراجع إلى الوراء، وهو ينظر إليها بعيني زائغتي النظرات، وما إن لفته الحقيقة بواقعيتها، حتى أبعدها عنه.

تمتم: «تباً!»

نفض يديه بقوة كأنه يريد أن يمحي أثرها عنهما.

تمسكت ناتالي بالطاولة كي لا تتعثر، وقد غادرتها تلك العواطف الجميلة الرائعة بسبب الازدراء الذي رأته في عينيه. شدت بقبضتها على حافة الطاولة إلى أن شعرت بالألم في رؤوس أصابعها.

بدأت بالقول، وهي تشعر بخيبة الأمل: «ديمتريو..!»

لم يسمح لها بأن تكمل كلامها. أمسكها من ذراعها، وسار بها إلى الخارج حيث أشعة الشمس الذهبية تسطع بقوة بعد ظهر ذلك اليوم، ثم أشار بحزم بيده نحو الممر الذي يوصل إلى الطريق قبل أن يقول بغضب: «توقفي عن التصرف

www.elromancia.com

كحمقاء، وابقي بعيدة عن الجحيم الذي أعيش فيه».

لو أنه تحدث إليها بنبرته السابقة التي تظهر انزعاجه من تطفلها، لأطاعته ولربما اقتنعت أنه فعلاً يريد التخلص منها، لكن صوته العميق الذي يخفي غضباً ممزوجاً بمشاعر أقوى بكثير من انزعاجه جعلها تدرك أنه خائف عليها، وخائف منها.

شعرت بالسعادة لأنه لا يستطيع أن يظهر عدم الاهتمام الذي يحاول جاهداً أن يبديه. تخلصت ناتالي من ترددها، وقالت: «لا! هناك رابط ما بيننا، دِمتريو. شعرت بذلك منذ البداية، وكذلك أنت. وهذا يجعل ما يحدث معك شأناً من شؤوني!».

علق بسخرية: «أنت تشاهدين الكثير من المسرحيات الخيالية!».

- حتى لو كان ما تقوله صحيحاً، فلن يغير ذلك ما أشعر به.

وضع دِمتريو يديه في جيبي بنطلونه الخلفيتين، وحدق بضيق إلى السماء الصافية.

- إن كنت ترغبين بمغامرة مسلية أثناء إجازتك الصيفية، عليك أن تبحثي عن شخص سواي في مكان آخر، فأنا لدي أعمال كثيرة بانتظاري.

- أعرف ذلك، وسأقوم بمساعدتك لتتمكن من إنجاز ما تريد إنجازه.

- تلوثين بالتراب هاتين اليدين الناعمتين، وتكسرين هذه الأظافر المطلية بطريقة رائعة؟

ضحك بصوت عالٍ، وفارقه كل إحساس بالسخرية وهو يتابع: «حسناً! أنا أصدقك عندما أرى ذلك بأم عيني»

- إذاً، كن مستعداً لتغيير رأيك.

استدارت مبتعدة عنه، وأمسكت رفشاً موضوعاً قرب الحائط، ثم بدأت تجمع قطعاً من الخشب المتناثر هنا وهناك قرب المنزل، والغضب يتفجر من كل حركة من حركاتها. انفجر دِمتريو قائلاً بنزق: «توقفي عن العمل! لا يمكنك القيام بذلك!»

- من يقول هذا؟

- أنا! أنت لست مهيأة للقيام بهذا النوع من الأعمال.

سار نحوها ليأخذ منها الرفش، لكنها سارت مبتعدة كي لا يمسك بها.

- يبدو أنك نسيت أنني حفيدة بربارا وايد!

قام دِمتريو بمحاولة ثانية، وهذه المرة تمكن من الإمساك بها، فخطف الرفش من يدها قائلاً: «وماذا يعني هذا؟»

- لم تصل جدتي إلى ما هي عليه الآن، لتتبوأ قمة إمبرطوريتها الاقتصادية، بالجلوس بارتياح وترك الآخرين يقومون بالأعمال عنها. لقد سارت بثقة نحو عالم الأعمال الذي يسيطر عليه الرجال، وعملت بجهد مثلك تماماً، وإن كان المجال مختلفاً.. وأنا أقول لك شيئاً هاماً دِمتريو: أنا لست مختلفة عنها مطلقاً!

- قد تظنين ذلك، لكن..

- هذا ما أعرفه جيداً! يمكنني أن أتعلم بسرعة، كما أنني عنيدة، أواجه ما يجب القيام به من دون خجل، حتى لو كان مختلفاً عما أنا معتادة عليه. علمني فقط وستجدني ألمع النوافذ، أغسل السقوف وأطلي الجدران...

تنهد دِمتريو وأدار عينيه الزرقاوين الجميلتين بيأس وهو يقول: «أنت لن ترحلي وتتركيني وشأني. أليس كذلك؟»

هزت رأسها مؤكدة كلامه: «لذلك من الأفضل أن تعتاد على الفكرة، وأن ترضى بها بامتنان».

- حسناً!

رفع دِمتريو يكتفيه باستسلام، وأعطاها الرفش من جديد وهو يقول: «يمكنك أن تعملي قدر ما تشائين. إذا رغبت في المتابعة بعد أن تنتهي من العمل هنا، هناك كومة من الخشب يجب أن تنقل إلى الداخل، كما لاحظت بنفسك وأنت تتجولين في المنزل».

www.elromancia.com

٦ - أمسية تحت ضوء القمر

تصور دمتريو أنها لن تتحمل هذا العمل الشاق لأكثر من خمس عشرة دقيقة، وهذه فترة كافية لكليهما. فوجودها بالقرب منه يسبب له ارتباكاً وإلهاء لاقدرة له مطلقاً على تحملهما. أما الأسوأ من ذلك، فهو أن وجودها في المكان غير المناسب وفي الوقت غير المناسب، جعلها تقابل رجلاً لا يجدر بامرأة محترمة أن تقابله في حياتها كلها. مازال دمتريو يتصبب عرقاً من فكرة وجودها بمفردها في تلك الغرفة مع كاتانسكا. إنه رجل بلا ضمير، لا يتردد للحظة في استغلال أي كان أو أي شيء في سبيل الوصول إلى غايته

أدركت ناتالي ذلك أيضاً، ولو بعد حين، عندما وجدها دمتريو تحتضن الكلب وهي جالسة على أرض المطبخ، قرب الحاجز الذي صنعه له. بدت كلوحة زيتية رائعة الجمال، إلا أن ذلك لا يعطيه العذر ليقوم بمعانقتها. هز رأسه وهو يشعر بالاشمئزاز من نفسه. لديه ما يكفي من التعقيدات، وهو ليس بحاجة إلى التورط في علاقة عاطفية مع وريثة أميركية.

لم تلاحظ ناتالي أنه ينظر إليها بمزاج نكد، فيما هي تستخدم الرفش بقسوة، محدثة غيمة من الغبار وهي تجمع كومة لا بأس بها من الحطام. عندما انتبهت أنه يراقبها، توقفت عن العمل، ثم وضعت قبضتها على وركها، وحدقت به بسخرية وغضب.

- هاي! لم أعرض عليك المساعدة، كي أتولى أنا القيام بكل شيء بينما تتسكع أنت متكاسلاً.

نفخت خصلة من شعرها لتبعدها عن وجهها، وتابعت: «مارأيك في أن تقوم بعمل مفيد، فتجد لي عربة لأنقل هذا الحطام من هنا؟».

هي جميلة جداً، وجذابة جداً، إلا أن جاذبيتها تتخطى بكثير جمالها الخارجي وثرائها. إنها تملك الشجاعة والحزم والروح العالية.

بوجود امرأة مثلها إلى جانبه، يستطيع أن...!

إي أحمق هو؟ أجفل بسبب الأفكار التي جرفته، وما لبث أن استدار على عقبيه وسار نحو المرآب الذي يتسع لعدد من السيارات، والذي تحتل سيارة الفراري ربع مساحته، وقد وضع عليها غطاء من القماش السميك. حوّل دمتريو ما تبقى من المكان إلى مخزن لمواد البناء والمعدات التي اشتراها لهذا الهدف، بالإضافة إلى محترف صغير له. وجد عربة نقل، فوضع عليها مجرفة وقفازين سميكين، وسار بها إلى حيث تعمل ناتالي.

قال بضيق، وهو يرمي القفازين نحوها: «من الأفضل أن تستعملي هذين القفازين».

- شكراً!

اسقطت الرفش من يدها، ولبست القفازين. بدوا كبيرين بشكل مضحك، فقد ابتلعا يديها وجزءً كبيراً من ذراعيها كأنهما عملاقان كبيران. بإمكانها أن تضع كلا قدميها في واحد منهما فقط، إن رغبت بذلك، وسوف يبقى هنالك متسع أيضاً.

- يمكنك أن تغادري، عندما تنهين عملك.

قال دمتريو ذلك، وهو يعلم أنه لو كان يملك ماضياً مختلفاً، لما تردد في التودد إليها. التقرب من ناتالي لن يحسن صورته الرديئة، بل سيبدو كأنه يرغب بالتسلق إلى المجتمعات المخملية الفاحشة الثراء في إيطاليا من خلالها.

- هل ستغادر؟

خيبة الأمل التي ظهرت في صوتها مزقت أحشاءه. فكر بصمت: أفعل ذلك مرغماً، أيتها الأميرة.

- لم سأغادر. علي القيام ببعض الاتصالات.

* * *

بعد مرور ساعتين، شارفت فترة بعد الظهر على الانقضاء. أنهى دمتريو

عمله لهذا اليوم، وعاد عبر المنزل إلى المطبخ. نظر إلى الباحة الخارجية متوقعاً أن تكون ناتالي قد رحلت منذ وقت بعيد، وبدلاً من ذلك وجد أنها لا تزال تعمل وبجهد واضح. أنهت تجميع حطام البناء ووضعته في العربة، وهي الآن جاثية على ركبتيها، تنزع الأعشاب الضارة من الأرض التي كانت في مامضى حديقة جدته.

يالإلهي.. إنها ليست امرأة عادية! على الرغم من أن الإجهاد أخذ منها مأخذاً، إلا أنها تخلت عن القفازين، وهي تقوم بالعمل بيديها العاريتين. يبدو أنها وجدت قطعة معدنية رقيقة، استعملتها كملقط لشعرها الرائع، فعقدته في أعلى رأسها.

أصبحت قميصها مبللة بالعرق، وبدا وجهها متورداً يعلوه الغبار. شعر ديمتريو بالهزيمة، فحمل زجاجتين من عصير الأناناس من البراد، ثم أخرج الكلب من الحظيرة، وخرج للقائها. قال: «هذا يكفي. هنالك قوانين في هذا البلد تمنع الأعمال التعسفية. حان وقت انتهاء عملك!».

لأول مرة، لم تجادله ناتالي. نهضت وهي تشعر بالألم في كاحليها، وتبعته إلى حيث ذهب ليجلس تحت ظل الشجرة، وجلست مرهقة بقربه.

فتح الزجاجة وقدمها لها: «تفضلي!»

ردت بصوت رقيق ملؤه التعب: «شكراً».

تكور الكلب في حضنها، ولمس بأنفه الصغير ركبتها.

طرف ديمتريو بعينيه، وأبعد نظراته عنها، ثم رشف رشفة كبيرة من زجاجته، قبل أن يجرؤ على النظر من جديد نحوها قائلاً: «أهلاً بك، فأنت تستحقين استراحة بعد القيام بذلك العمل المجهد».

- كلانا نستحق بعض الراحة.

تنشق رائحتها من تلك المسافة القريبة بينهما، وهي مزيج رائع من رائحة الشامبو العطر الممتزجة برائحة الأرض المنعشة. لو عملت ناتالي في تنظيف الحظيرة، ولم تغسل شعرها منذ أسبوع، فهو سيشعر بذلك الانجذاب نفسه نحوها. من تراه يخدع؟ هو لم ينسَ للحظة واحدة عناقها البريء، لم ينس كيف

تجاوبت معه وذابت بين ذراعيه.

يالإلهي! إنها تشكل تهديداً له أكبر من ذلك الذي يشكله كاتانسكا.

علقت ناتالي بعد أن لاحظت تشتت أفكاره: «أدفع جنيهاً لمعرفة ما تفكر به».

رأى لطخة من الغبار على أنفها، كأنها تتوسله كي يزيلها، لكنه أدرك أنه إذا لمسها فلن ينتهي الأمر بينهما عند ذلك الحد. أجاب: «كنت أفكر بالخطوة التالية التي يجب علي القيام بها».

في الواقع، لم يكن ديمتريو كاذباً تماماً بإفصاحه عما يفكر به بطريقة ملتوية.

جالت بنظرها عبر الحديقة وفوق الجدران العالية للفيلا، ثم هزت رأسها مستغربة، وعلقت: «باشرت بعمل ضخم جداً في هذا المكان. هل أنت متأكد أنك قادرة على إتمامه؟»

- ما كنت لأبدأ العمل لو لم أكن واثقاً من أنني قادر على إنهائه.

هزت رأسها متسائلة: «من الواضح أن هذا المنزل مهم جداً لك، ديمتريو. أليس كذلك؟ لكن أليس من الأسهل بالنسبة إليك أن تبدأ العمل في مكان آخر، وفي منزل أصغر حجماً؟»

- أنا لا أقوم بالأعمال السهلة.. وحتى لو فعلت، فلن أبيع هذا المنزل مطلقاً. إنه منزل جدتي. وهي كانت تعتبر كل شيء داخل سور هذه الحديقة كنزاً حقيقياً. لا بد أن قلبها كان ليتحطم لو قدر لها أن ترى المنزل اليوم، في وضعه الحالي!

- حتى لو كان الأمر كذلك، هنالك الكثير من العمل هنا. إنه مشروع ضخم. هل تخطط للقيام بكل هذا العمل بنفسك؟ إذا كنت مصمماً على إعادة المنزل والحديقة إلى حالتهما السابقة، أليس من الأفضل أن تستخدم عمالاً لهذا الغرض؟

ضحك وهو يقول: «أنت حقاً ساذجة، ناتالي! هل تعتقدين أنني سأجد من يرضى بالعمل لدي؟»

- لا بد أن تجد أشخاصاً يقدّرون أنك تحاول الاحتفاظ بمنزل ذي هندسة

www.elromancia.com

مميزة، وإعادته إلى مجده السابق.

- الحصول على تقدير الآخرين ليس على رأس اهتماماتي. السبب الرئيسي الذي يدفعني للقيام بذلك هو أن الأمر مهم بالنسبة لي، ولأنني أستطيع القيام به.

- لكن كيف يمكنك تغطية...؟

توقفت عن الكلام، وبدت كأنها عضت على لسانها. تابعت بعد قليل: «أعتقد أنني لا أملك الحق كي أسألك مثل هذا السؤال».

- لا! لا تملكين الحق بذلك.

لمعت عيناها الرماديتان الجميلتان من الغضب.

- حسناً! تأكد أنني لن أرتكب مثل هذه الغلطة مرة ثانية! لكن حتى شخص ساذج مثلي، كما تقول، يستطيع أن يعي بوضوح أن ترميم هذا المكان يحتاج إلى ثروة، فما زال أمامك الكثير من الأعمال لتقوم بها.

- هذا شأني الخاص، وليس شأنك!

تبع شجارهما صمت مرير. تسمرت ناتالي بهدوء في مكانها لدقيقة أو أكثر، قبل أن تضع زجاجة العصير جانباً وتبعد الكلب عن حضنها

- إذاً، سأتركك تتمتع بذلك الانجاز بمفردك، فقد أطلت البقاء هنا بما يكفي.

- هذا ما كان يجب أن تفعليه منذ البداية.

تمتم بذلك، إلا أنه لم يشعر بالارتياح بسبب قرارها بالرحيل، كما يفترض به أن يفعل.

وافقته بشموخ وكبرياء: «هذا صحيح، من دون أي شك!».

وقفت على قدميها وشدت بقميصها إلى الأسفل متابعة: «شكراً لك على ضيافتك. سأقدم خدمة لنا معاً، ولن أفرض نفسي عليك مرة ثانية».

- هذا أفضل!

* * *

سارت ناتالي بشجاعة وقوة، وما إن وصلت إلى الطريق العام، حتى

أجهشت بالبكاء. فكرت وهي تمسح دموعها المنهمرة على وجهها بغضب، أنها تنتحب كما لو أنه تخلى عنها في حفلة الزفاف، بينما في الواقع، قدم لها ديمتريو العذر الأمثل لتتخلص منه. إنه رجل صامت، متحفظ وثائر، لا عجب مطلقاً أن الناس لا يشعرون بأي تعاطف معه. هي تدرك بالطبع أنها أخطأت بسؤاله عن أحواله المادية، لكن طريقته العدوانية في صدها جعلتها تفكر بأشياء ما كانت لتخطر في بالها من قبل.

يحضر ديمتريو كل مشترياته من نابولي، وهي مدينة معروفة بازدهار الأعمال المشبوهة فيها، وحيث تنشط تجارة المخدرات وحرب العصابات في مناطق كثيرة من تلك المدينة. أهذا هو مصدر أمواله؟ أتراه ينوي تجديد الفيلا وترميمها من المال الذي يجنيه من المضاربة في السوق السوداء أم من تجارة سرية مشبوهة؟

هي لا تملك أي جواب. كل ما تعرفه هو أنها تشعر باليأس والحزن، وأن أملاً انكسر في داخلها قبل أن يحظى بفرصة كي يزهر وينمو.

ما الذي يعجبها في شخصيته، والذي يجذبها إليه بمثل هذه القوة؟ أتراها تشعر أنه شريك روحها، أم أنه فاكهة محرمة تغريها إلى هذه الدرجة؟ لم تكن ناتالي يوماً امرأة تحب اللعب بالنار، لكن الإحساس بالإثارة والحماس ملأ حياتها منذ أن دخل إليها هذا الرجل. فكرت فجأة: هل سيصبح عالمها صامتاً وفارغاً الآن بعد أن تخلصت من ذلك الاحساس؟

علقت جدتها، ما إن دخلت إلى المنزل: «عزيزتي يبدو لي أنك لست على مايرام... لمَ لا تستحمين وترتدين ثوباً جميلاً، وتأتين معي لزيارة عائلة سانتينوس؟ اتصلت بي مريانا منذ نصف ساعة لتدعوني إلى تناول العشاء في منزلها، فحفيدها أوغوستو أتى من فينيسيا لزيارتها. أظنك ستستمتعين بلقائه».

لم تستطع ناتالي تخيل نفسها وهي تمضي الأمسية متظاهرة أنها سعيدة برفقة رجل آخر.

- شكراً جدتي، لكنني لا أستطيع الذهاب الليلة. أشعر بأنني سأتعرض لأسوأ صداع، وأفكر في النوم باكراً.

لم تكن تكذب فهي ستصاب بالصداع إن وافقت على تلك الدعوة.

www.elromancia.com

تجهم وجه جدتها وقالت: «هم، تبدين هزيلة. وعيناك حمراوان».

قالت ناتالي بسرعة: «ربما تعرضت لأشعة الشمس لفترة طويلة»

لم تعد ناتالي قادرة على تحمل تفحص باربرا لها بنظراتها الثاقبة، فتابعت: «خرجت من المنزل اليوم أيضاً من دون اعتمار قبعة. لابد أنك تفكرين أن الوقت حان لأدرك أهمية ذلك عندما أتجول في هذه المنطقة. اذهبي بدوني جدتي، وسأراك عند الصباح».

* * *

استغرقت ناتالي وقتاً طويلاً كي تستحم وترتاح. ما إن خرجت من حوض الاستحمام ولبست رداءً قطنياً ناعماً، حتى فكرت في أن تطلب عشاء خفيفاً إلى غرفتها، عندئذ سمعت طرقاً خفيفاً على باب غرفتها.

قالت إحدى خادمات المنزل: «هناك من يطلبك على الهاتف، سنيورينا. والمتصل هو رجل».

افترضت ناتالي أنه والدها! فارتمت على السرير، وأمسكت سماعة الهاتف. لم تستطع أن تفكر بأحد سواه قد يتصل بها. لكن الصوت المنساب عبر الهاتف، لا يشبه مطلقاً صوت والدها.

- ما الذي تفعلينه في هذه اللحظة، أيتها الأميرة؟

لم يقل مرحباً أو كيف حالك.. أو أرجو ألاّ أكون قد أزعجتك... أو آسف لأنني تصرفت بحماقة بعد الظهر. أغمضت عينيها وابتسمت، وتبخرت من كيانها على الفور كل ذرة من التعب وخيبة الأمل بسبب الدفء الذي سرى في عروقها.

- مستلقية على ظهري، أحدق في السقف. وأنت، ما الذي تفعله؟

- أحدق بإبريق من العصير الطازج، وأتمنى أن أجد من يشاركني به.

غدا صوته هامساً كأنه يحاول السيطرة عليها وهو يتابع: «هل ترغبين بمساعدتي بذلك... أيضاً؟»

- هم.. لست أدري!

قالت ذلك وهي تعلم جيداً أن رفضها لدعوته ليس احتمالاً وارداً على

الإطلاق. على الأرجح أن هناك نساء يتمتعن بالصلابة فلا يتستسلمن للمشاعر المتناقضة، كالاحمرار خجلاً أو الارتجاف من البرد عندما يتحدثن إلى رجل شديد الجاذبية، رجل يتميز بلهجة هي مزيج من الأمريكية والإنكليزية معاً موشاة بلكنة إيطالية، لكنها ليست واحدة منهن...

- ماذا لو حضرت لك عشاء من حواضر البيت؟ هل سيكون ذلك كافياً لإقناعك؟

سيطرت عليها مشاعر بدائية عميقة، فقالت: «هذا يعتمد على ما ستقدمه. هل علي أن أرتدي ثياباً رسمية؟ أقصد...».

قال بصوت هامس، جعل الدماء تضج في أذنيها: «لا! يمكنك المجيء كما أنت.. بثياب النوم إذا أردت. إنها مناسبة عادية».

بالنسبة إليها، لا شيء يتعلق بديمتريو برتولزي يمكن اعتباره عادياً. فهو وسيم جداً، جذاب جداً، وفكرة مشاركته العشاء تجعل قلبها يخفق بسرعة.

ضغطت بقبضة يدها على قلبها الذي تسارعت دقاته وقالت: «في أي وقت؟»

- كم تحتاجين من الوقت لتستعدي؟

نظرت إلى الساعة الموضوعة قرب سريرها فإذا هي قد تجاوزت السادسة بعشر دقائق.

قالت: «أحتاج إلى ساعة من الوقت»

كذبت! فهي تستطيع أن تصبح جاهزة في غضون خمس دقائق.

قال ديمتريو: «أراك عند الساعة السابعة إذاً!»

وأنهى الاتصال.

لم يقل وداعاً، ومع هذا، قررت ناتالي أن ذلك فأل حسن.

* * *

اعترض طريقها في اللحظة التي خرجت فيها من أبواب فيلا جدتها إلى الطريق. ظهر من بين الظلال خلسة، فأجفلت وصرخت من الصدمة.

- آسف! لم أقصد أن أخيفك.

www.elromancia.com

- حسناً! لقد أخفتني، سواء أردت ذلك أم لا.

اتسعت عيناها والتمعتا رغم الظلام الحالك، وقالت متابعة: «ماذا تفعل هنا في الخارج؟ ظننتك تعمل على تحضير العشاء الذي وعدتني به!».

- الظلام شديد في الخارج.

ضحكت بارتياح، فبدا صوتها كشلال من الفضة: «وماذا في ذلك؟ لا أظنني سأتوه في هذه الطريق».

أمسك معصمها بنعومة، فشعر بتسارع نبضها الناتج عن الخوف.

رفع كتفيه قائلاً: «ربما! لكنني معتاد على مرافقة صديقتي عندما أدعوها لملاقاتي، ولا أتوقع منها أن تأتي بمفردها، ومادمت لا أستطيع الوصول إلى الباب الأمامي في فيلا جدتك لأعلن عن نفسي بصراحة، وجدت أن الخيار الثاني هو الأفضل».

ما قاله هو جزء من الحقيقة فقط، وقد ساقه لها بلباقة كافية كي لا تطرح المزيد من الأسئلة، لكنه في الواقع لن يخدع نفسه. حضور كاتانسكا المزعج بعد الظهر، والتهديد المبطن الذي أطلقه، أزعجا دمتريو أكثر مما يستطيع الاعتراف به.

قالت: «كنت لتشعر بالأمان لو أنك أتيت من الباب الرئيسي الليلة، فجدتي ليست في الفيلا».

- لست خائفاً من جدتك. أنا مستعد لمواجهة غضبها في أي وقت من الأوقات، إن رغبت أنت بذلك. أنا أتجنب مواجهتها لأنني لا أريد أن أسبب لك الإحراج. هذا كل مافي الأمر.

أمالت ناتالي رأسها إلى جهة واحدة ثم قالت: «أنت لن تسبب لي أي إحراج دمتريو، لكن ربما من الأفضل أن نبقي الأمر سراً بيننا. لا جدوى من إثارة تعليقات غير ضرورية».

- إن كنا سنلتقي بصورة مستمرة، إذ يبدو أننا لانستطيع البقاء بعيداً عن بعضنا البعض، سنحتاج إلى وسيلة أكثر ملاءمة للقاء. ما الذي ستكون عليه ردة فعل جدتك، برأيك، إن أقمت ممراً بين ممتلكاتي وممتلكاتها؟

لا بد أنه يمزح! لكن ناتالي تمسكت بالفكرة بحماس وفرح.

- لا فكرة لدي مطلقاً. أقترح أن تباشر بالعمل، فالأراضي واسعة جداً، ومن المحتمل أنها لن تلاحظ ذلك.

- ماذا إن فعلت؟

مالت نحوه وهي تبتسم له ابتسامة ساحرة، وقالت: «من الأفضل لك أحياناً أن تطلب العفو من أن تطلب الإذن للقيام بعمل».

أوشك دمتريو على الرد، وفجأة عكّر هدوء ذلك المساء صوت نباح كلب ضعيف. شعرت ناتالي بالتوتر وسألته: «أهذا صوت الجرو؟».

- يبدو أنه كذلك.

- يا إلهي! ماذا لو تبعك وضل طريقه؟

- لا مجال لذلك! تركته محجوزاً في الحظيرة في المطبخ. إنه فقط يعلمنا أنه غير راضٍ عن تركه بمفرده.

- ربما استطاع الهرب. هيا، دمتريو! لنتأكد أنه بخير.

أمسكت بيده، محاولة أن تشده للسير على الطريق، لكن محاولتها ذهبت سدى إذ قرر أن يقاوم، لكن ما تقوله منطقي، فالجرو ما زال صغيراً جداً وقد يتمكن من الخروج من بين الحواجز التي بناه له.

ما إن دخلا إلى المطبخ، وجد دمتريو أن كل شيء مازال كما تركه، وأن الكلب مازال في حظيرته، حيث تركه تماماً.

نظرت ناتالي إلى الجرو الصغير، فلاحظت عينيه الحزينتين، وأذنيه المتدليتين، لكنها أطمأنت أنه مازال بأمان.

قال دمتريو: «أرأيت؟ كما قلت لك تماماً، الجرو بخير».

- حسناً! كيف لي أن أعلم؟

سارت نحو الحظيرة، وحملت الجرو فوق ذراعيها.

- بصراحة، يبدو هذا المسكين حزين جداً. أعتقد أنه يفتقدك. هل تذكرت أن تقدم له العشاء؟

- مباشرة بعد رحيلك أيتها الأميرة. أكل كل ما أحضرته له فوضعت له

www.elromancia.com

المزيد من الطعام. وقبل أن تسألي، سآخذه غداً إلى عيادة الطب البيطري في بوستيانو.

قبلت ناتالي أذني الجرو، وحفت خدها برأسه وهي تقول: «لقد عانيت من بداية صعبة جداً، ياقطعة الحلوى، لكن الحياة ستصبح أسهل وأجمل من الآن فصاعداً».

فكر دمتريو: إن الحياة رائعة جداً بالنسبة إليه الآن، وأنت تضمينه إليك بهذه الطريقة!

حاول جاهداً أن يجعل صوته يبدو عادياً، وهو يقول: «يؤلمني جداً أن أقاطع لقاء عاطفياً كهذا، لكن إذا كنت تحرصين على بقاء ثوبك نظيفاً. يجب أن نخرج الكلب إلى الحديقة لقضاء حاجته»

- سآخذه بنفسي.

- لا!

حمل كوبين وإبريق العصير وتابع: «سنذهب معاً. وسنشرب العصير تحت ضوء القمر المكتمل، ونحن نجلس على قمة المنحدر الصخري... على فكرة أيتها الأميرة، أرفض أن تنادي كلباً أملكه«قطعة الحلوى»».

- حسناً! بم ترغب أن أناديه، إذاً؟

أمسك بمصباح يدوي كبير عن سطح البراد، ثم قال وهو يصوب ضوء المصباح إلى ممر حجري يصل بين المطبخ وزاوية الحديقة الخلفية: «لا أدري.. ما الخطأ في تسميته مات. أو مانفي مات على سبيل المثال، فالاسم له رنة خاصة به ما رأيك بذلك؟»

- رأيي هو أنك فعلاً بحاجة إلى مساعدة بشكل خطر جداً.

ضحكت وهي تمسك بالكوبين اللذين كانا في خطر الانزلاق من يده. وتابعت: «ما رأيك باسم أمير أو نبيل أو ملك؟»

- لأجل هذه الكومة من الفرو ؟ لا بد أنك تمزحين!

تشاجرا بطريقة ودية طول الطريق، ووصلا إلى اتفاق عندما اقتربا من الجدار الذي يفصل بين الحديقة والمنحدر، فاعتمدا اسم بيبو كحل يرضيهما

معاً. وجه دمتريو ضوء المصباح اليدوي ليسطع نوره على نتوء صخري يمتد على مساحة واسعة، وركز الضوء على مقعد حجري قديم مواجه للبحر.

- اجلسي على المقعد هناك، وسأسكب العصير ثم أنضم اليك.

اجتازت ناتالي الطريق عبر الأعشاب البرية، ومررت راحة يدها على المقعد الذي ما يزال دافئاً بسبب حرارة شمس النهار.

قالت بصوت كهديل الحمام: «آه، كم هذا رائع!»

نظرت إليه بدلال وتابعت: «قل لي إنك رتبت هذا المكان لي».

- أخشى أن هذه ليست الحقيقة. هذا هو المكان الخاص والمميز لجدتي. غالباً ما كانت تأتي إلى هنا لتراقب غروب الشمس أو إطلالة القمر، فكرت أنك سوف تستمتعين بهذا المنظر الرائع أنت أيضاً.

ظهرت ابتسامة على وجهها، ثم ضمت تنورتها الواسعة ذات اللون الزهري إليها كأنها بتلات زهرة، وقالت تمازحه: «أنت على حق».

كل ذرة من تصرفها الأنيق يعلن أنها سليلة أسرة عريقة، كأنها ملكة على عرشها. انضم دمتريو إليها، ليجلس قربها على المقعد.

- يسعدني أن المكان أعجبك.

رشفت رشفة صغيرة من كوبها قبل أن تقول وقد أصبحت تعابير وجهها حازمة فجأة: «شكراً لك على دعوتي للحضور إلى هنا، دمتريو. أشعر باعتزاز كبير لأنني أشاركك في هذا المكان الرائع».

مرة ثانية، اجتاحت كيانه المشاعر الصادقة، لتسيطر عليه وتمنعه حتى عن الكلام. فسحرها وتصرفاتها النبيلة هي غاية في الكمال. لا بد أن جدته كانت لتحبها وكأنها حفيدتها.

- هذا من دواعي سروري، أيتها الأميرة.

تنهدت ناتالي بارتياح، ورفعت رأسها لتحدق بالنجوم.

- أحب رائحة الحدائق في الليل، لا سيما تلك المزروعة بالياسمين والليمون.

لم تسمع تعليقاً على ماقالته، فمالت بنظرها إليه قائلة: «لِمَ لا نتناول العشاء

www.elromancia.com

هنا في الخارج؟ المكان رومنسي جداً، وبإمكاننا أن نستعمل سطح الجدار كطاولة».

- رومنسي؟! يا إلهي! هنالك سحليات وأفاعٍ تعيش في تصدعات الجدار، من دون أن أذكر العناكب...

صرخت بصوت ناعم قبل أن تقول: «أكره العناكب، أما بالنسبة للأفاعي..».

ارتجفت من الانزعاج قبل أن تتابع: «هل تدرك أنني تسلقت ذلك الجدار من قبل، وجلست عليه لأكثر من خمس دقائق، وكنت أرتدي بنطلوناً قصيراً؟ حصل ذلك يوم وجدتني أسرق المياه من مطبخك».

- أعرف ذلك!

لم يدرك دمتريو ان ذراعه امتدت والتفت حول كتفيها: «ربما ستصبحين أكثر حذراً في المستقبل، فتكفّي عن المخاطرة بنفسك».

شعر بحرارة جسدها، وتنشقت حواسه عبير عطرها. ثم انزلقت يده نحو خصرها، فأصبحت غير قادرة على التنفس، إلا أنها تركته يضمها إليه أكثر.

شعرا بالانسجام معاً بقوة فاقت توقعاتهما، فالانجذاب المتبادل بينهما بدا أقوى من أي كلام. هكذا تحول النقاش بينهما إلى صمت مليء بالمشاعر اللطيفة الممتزجة بإحساس الصداقة التي تجمعهما حتى الآن.

تظاهر دمتريو أنه منشغل بمراقبة الجرو وهو يقفز ملاحقاً فراشة، لكنه في الواقع كان يراقبها بانتباه شديد. قالت، من دون أن تنظر إليه: «جنيه آخر من أجل أفكارك، دمتريو. ما الذي تفكر فيه هذه المرة؟»

- أفكر بك، أيتها الأميرة.

تنهدت مبتعدة عنه: «هذا ما ظننته. أنت نادم لأنك طلبت مني الحضور أليس كذلك؟».

هل هذا ما يحدث؟ قال بصراحة: «أجل!»

- إذاً، لِمَ دعوتني؟

- لم أستطع إلا أن أفعل.

- والآن ها أنا هنا، وأنت لا تعرف ما الذي عليك أن تفعله.

رفع حاجبيه، ونظر إلى البحر الأزرق الغارق في الظلمة، متمنياً لو أنه يستطيع مقاومة مشاعره نحوها.

- أعتقد أنك تعرفين ما الذي أحب أن أفعله.

- هذا ما أفكر به أيضاً. لذلك بدلاً من مقاومة ما نشعر به، لِمَ لا نستسلم لمشاعرنا؟

قفز دمتريو عن المقعد كأن حشرة سامة لسعته، ثم سار بخطوات واسعة نحو الجدار.

- لأننا سنكون مجنونين إن فكرنا حتى بالأمر.

لِمَ يتحدثان عن مشاعرهما بمثل هذا الغموض، فيما يدرك كلاهما كم هما منجذبان إلى بعضهما البعض؟

قالت ناتالي: «لا يمكنك أن تسمي ذلك جنوناً».

- في حالتنا، هذا جنون مطبق. عائلتك.. عائلتي... نحن ننتمي إلى عالمين مختلفين، ناتالي. وجدتك...!

نهضت من مكانها، وسارت إلى حيث يقف. أمسكت بكوبه، ووضعته قرب كوبها على الجدار، ثم قالت بنعومة وهي تلف ذراعها حول عنقه: «دمتريو، لا علاقة مطلقاً لجدتي بالأمر. الأمر يتعلق بي وبك فقط، لذلك من فضلك توقف عن البحث عن أعذار، وعانقني».

www.elromancia.com

٧ - لا تبعدني عنك!

قال وهو يبتعد عنها: «هذا لن يحصل! إنه أسوأ أمر يمكنني القيام به».

مع ذلك، عانقها ما إن اقتربت منه، أحاط وجهها بيديه وضمها إلى صدره بشغف كبير، مفجراً في داخلها عاطفة وشوقاً لا حدود لهما. لفهما الشغف المتبادل بغمامة كثيفة من المشاعر، نقلتهما إلى عالم ساحر لا يعرف الزمان والمكان ولا اللغات أو الفروقات الاجتماعية. عالم لا يعترف بالحواجز والمسافات.. لا يعترف إلا بالمشاعر الجياشة والأحاسيس المضطرمة.

عناقه المليء بالشغف جعلها تنسى كل ما يتعلق بالأفاعي والسحليات والعناكب، إذ لم تعد تشعر إلا به وبقربه منها.

كم يسهل عليها أن تغرق في أعماق عينيه الزرقاوين، وأن تذوب بين ذراعيه؟

شعرت أن حياتها باتت معلقة بهذا الرجل. لم تراودها مثل هذه الأحاسيس من قبل تجاه رجل، ولم تظن يوماً أنها سوف تشعر بها. لكن ماذا لو فكر ديمتريو بالتلاعب بمشاعرها ثم تخلى عنها لاحقاً؟

رفعت وجهها إليه وقالت: «ديمتريو، هناك أمر يجب أن أخبرك به، قبل أن تتطور الأمور بيننا»

قال بصوت أجش: «ماذا؟ هل أخفتك أيتها الأميرة؟».

- لا، مطلقاً! لكن، أنا... أنا...

التصقت الكلمات في حلقها رافضة أن تنطلق.

ابتعلت غصة بصعوبة، وحاولت من جديد. فلتقل ما تريد قوله بسرعة قبل أن تفقد شجاعتها.

- أنا عذراء ولم أسمح لرجل قبلك بمعانقتي، لكنني أشعر أنك أنت الرجل الذي انتظرته طلية حياتي!

انفجرت الكلمات الأخيرة من فمها كأنها طلقة مدفع. استغرق ديمتريو بعض الوقت كي يتمكن من استيعاب ما تعنيه، بدليل أنه جمد في مكانه دون حراك. أصبح هادئاً جداً، كأنه أصيب بصدمة قوية. بعدئذ، أبعد يديه عنها بهدوء مطلق ثم قال: «هذه مشكلة كبيرة جداً بالنسبة لي، أيتها الأميرة. أتعرض للكثير من المشاكل، لهذا يجب أن نتوقف عن عناقنا هذا الآن وإلى الأبد».

تذمرت قائلة: «لا! أنا لم اقصد ذلك.. إنما...».

أبعدها ديمتريو عنه بسرعة، حتى إنها كادت تقع بسبب ارتجاف ساقيها. قاطعها بنبرة ملؤها التوتر والغضب: «مهما يكن الأمر، لدي ما يكفي من الأزمات والمشاكل، من دون أن أضيف إلى لائحتي خطيئة إغواء أميرة أميركية»

قالت وهي تمسح دمعتها: «آه، ديمتريو! لا تبعدني عنك!».

- حاولي أن تقولي هذا الكلام للرجل المناسب الذي تختارينه شريكاً لحياتك لا لرجل مثلي.

- ماذا لو كنت أنت الرجل المناسب؟

تردد صدى ضحكته في الليل، ضحكة قاسية وساخرة معاً.

- بالطبع، أنا لست ذلك الرجل، أيتها الأميرة. ولن أكون كذلك ولو بعد مليون سنة!

قالت ناتالي بإصرار: «وكيف تعرف ذلك؟ ديمتريو، أعتقد أنني وقعت في حبك.. هذا ماشعرت به في اللحظة التي دخلت فيها إلى حياتي».

يا إله السماوات! إن كانت تسعى إلى إبعاده فقد نجحت في ذلك بدون أي شك بعد أن تفوهت هذه الكلمات بصوت عالٍ! لكن الحقيقة سيف ذو حدين، واعترافها هذا لم يعد سراً بعد ما باحت به في البداية.

بدا بوضوح أنها أصابته بالدهشة من جديد. وعلى الفور أشاح ديمتريو ببصره جانباً، وهز رأسه منزعجاً. بعد قليل أغمض عينيه، وزفر أنفاساً

www.elromancia.com

متقطعة وحادة.

أخيراً نظر إليها وقال: «أنت لا تعرفين عما تتحدثين. يمكنني أن أعدّ على يد واحدة عدد الساعات التي أمضيناها معاً. نحن لا نعرف بعضنا لأيام، أو أسابيع، أو أشهر، أيتها الأميرة، لكن لساعات فقط! كيف يمكن بحق السماء أن تغرمي برجل في ذلك الوقت القصير، لا سيماإذا كان ذلك الرجل مثلي؟»

– لا تحتاج المرأة إلا إلى دقائق فقط لتنظر إلى قلبها وترى الحقيقة في داخله.

أطلق دمتريو شتيمة وابتعد عنها قليلاً. توقف لفترة قصيرة ليرميها بتعليق من وراء كتفيه قبل أن يتوجه إلى المنزل: «ألم تسمعي كلمة واحدة مما قلته؟ قلت لك سابقاً: أنا وأنت أشبه بالزيت والماء، مهما حاولت أن تمزجيهما فإنهما لن يمتزجا».

راقبته ناتالي وهو يغادر المكان وقد غمرها اليأس، وملأ الحزن قلبها. وكأنما الكلب الصغير شعر بخيبة أملها، فوضع قائمتيه الأماميتين على ركبتيها متذمراً. انحنت وحملته بين ذراعيها، ثم دفنت وجهها في جسمه الصغير الدافئ.

همست: «أنا لا أصدقه، ولا أهتم لما قاله، فأنا مغرمة بكما معاً، ولا أستطيع إنكار ذلك».

رفع الجرو رأسه، وراح يلعق وجهها بحماس. فكرت ناتالي أنه على الأقل لا يعتقد أنها مجنونة.

أطلق دمتريو شتيمة غاضبة، وهو يدخل إلى المطبخ. شعر بأنفاسه تتسارع وبجسده يتصبب عرقاً كأنه كان يركض في الماراثون. ما الذي دهاه بحق السماء، كي يسمح للأمور بأن تتطور بينهما لتصل إلى درجة الخطر؟ مع ذلك، فكر، مبرراً لنفسه، أن أي رجل تجري الدماء في عروقه سوف يتأثر بجمالها وسحرها.

طرف بعينيه ما إن سقطت قطرات من العرق على وجهه. كل ذرة فيها، من رأسها حتى أخمص قدميها، رائعة بما يكفي لجعل الرجل يحيد عن صوابه، حتى لو كان ناسكاً. ودمتريو برتولوزي هو أبعد ما يكون عن الناسك.

كل ما فعلته بدا صادقاً إلى درجة جعلت مشاعره تفيض شوقاً إليها، دمتريو ليس معتاداً على مثل ذلك الصدق ومثل تلك البراءة، لا فكرة لديه مطلقاً عن كيفية التعامل مع هذا الوضع، كل ما قام به هو أنه ركض بعيداً عنها بكل ما أوتي من قوة.

لكن المشكلة هي أن الرجل لا يستطيع الاستمرار في الهروب من نفسه. ففي نهاية السباق سيجد أن المشاكل ما زالت وراءه تماماً، وأنه لا يستطيع الهروب منها، فعاجلاً أم آجلاً عليه مواجهتها.

سمع خطواتها المترددة تقترب منه عبر الحديقة، ما جعله يدرك أن المواجهة ستكون قريبة، وقريبة جداً.

بالطبع لن ترضى ناتالي بأن تختفي في الظلام وتتركه بسلام. لا بد أنه أحمق كبير إن ظنّ أنها ستفعل ذلك. خنق تنهيدة في صدره، قبل أن يستدير لمواجهتها.

قالت بصوت حزين: «أحضرت بيبو إلى المنزل. لا أعتقد أنك تريده أن يبقى في الخارج، لكن.. هذا هو السبب الوحيد لوجودي هنا، فأنا أعلم أنك تريدني أن أرحل».

اعتصر قلبه ألماً وإشفاقاً عليها بسبب الحزن الذي نضح من صوتها.

نعم، هو يريدها أن ترحل، لكن ما يريده بإلحاح أكبر هو أن يبقيها هنا بقربه.. ليس فقط من أجل معانقتها.. يريد أن يجعلها تبتسم وأن يسمع ضحكتها، يريد أن يمتع عينيه برؤيتها عبر الطاولة، فيتحدث إليها ويعرف المزيد عنها وهما يتشاركان العشاء البسيط الذي قرر إعداده.. حتى أنه يريد أن يشاركها بذكريات من حياته، وهذا أمر لم يشعر به مطلقاً من قبل.

مع ذلك، ومن أجل مصلحتهما معاً، فإن التخلص منها هو أفضل حل.

لم يعرف دمتريو كيف انتهى به الأمر ليقول: «يمكنك أنت أيضاً البقاء. عليك أن تأكلي، وهنا لدي طعام كاف لنا نحن الاثنين».

لمست بطرف لسانها شفتها العليا بتوتر، وقالت: «أنت فقط تحاول أن تبدو مهذباً».

www.elromancia.com

-حسناً! لم لا أيتها الأميرة؟ الأخلاق الحسنة ليست حكراً على أولاد الأثرياء فقط، كما تعلمين.

تورد خدا ناتالي من الارتباك، وردت بسرعة: «لم أقصد ما فهمته من كلامي».

- إذاً، توقفي عن الالتصاق بحاجب الباب. ادخلي واشربي كوباً من العصير بينما أحضر وجبة العشاء.

اقتربت منه وهي تنظر إليه بقلق، كأنه طلب منها القيام بعمل مشين.

- أيمكنك أن تطهو؟

- نعم.

سار نحو البراد وأحضر زجاجة أخرى من العصير، سكب كوباً وقدمه لها قبل أن يسكب كوباً آخر لنفسه وهو يقول: «لمَ يفاجئك ذلك؟»

-لأن معظم الرجال الذين أعرفهم لا يستطيعون أن يُسخّنوا الماء. ما الذي تحضره؟

- المعكرونة بالكاربونارا على طريقة برتولوزي. هذا الطبق ليس منتشراً في هذه الأرجاء، لكن...

قطع كلامه وانشغل بإحضار المواد اللازمة من البراد ومن خزانة الطعام التي بناها في مدخل قديم في المطبخ.

لم تفهم ما قصده، فقالت: «لكن، أهذا هو الطبق الوحيد الذي تجيد تحضيره؟»

جمع دمتريو المكونات التي يحتاج إليها لتحضير الطبق الرئيسي: بيض، شرائح من اللحم المدخن، جبنة بيكورينو، رغيف من الخبز والمعكرونة الطازجة الذي أحضرها هذا الصباح من متجر في بوستيانو، أما البندورة فقد اشتراها من بائع للخضار وهو في طريق عودته.

قال متفاخراً بنفسه: «لا! على الإطلاق. أنا إيطالي، فكيف يمكنني ألاّ أطهو بطريقة جيدة».

تركت ناتالي الكلب ليركض على هواه في المطبخ، وجلست على أحد

المقاعد في الجانب المقابل من الطاولة وأمسكت كوبها بين يديها.

- صحيح أنك إيطالي، لكن كما ذكرت لك من قبل، هناك لهجة أميركية واضحة في لغتك. فما سر ذلك؟

- أمي أميركية الأصل. قابلت والدي عندما أتت في زيارة إلى إيطاليا، وتزوجا في غضون شهر واحد. بعد موته، عادت إلى الولايات المتحدة وأخذتني معها، كنت في الرابعة من عمري حينذاك.

اتسعت عيناها الرماديتان الجميلتان من خيبة الأمل.

- يا له من أمر مأساوي بالنسبة إليها! أن تصبح أرملة وهي ما تزال شابة، وأن تكبر أنت بدون والدك.

عدّل دمتريو حرارة النار تحت مقلاة من الحديد الصلب، وسكب في داخلها مقداراً من زيت الزيتون، وبينما كان الزيت يسخن، قطّع اللحم المدخن وفصاً من الثوم مستخدماً سكيناً قديماً.

قال لها وهو يضع الثوم واللحم في المقلاة: «في عالمك أنت، ربما، لكن ليس في عالمي. توفي والدي في قتال مع عصابة من المجرمين، قتل في وسط الشارع في وضح النهار، ويمكنني أن أراهن أن أمي لم تذرف دمعة واحدة عليه. ومما علمته في ما بعد، كان زواجهما أقرب إلى الجحيم، فهي لم تشعر بالأمان مطلقاً هنا».

- يمكنني أن أفهم لما غادرت، إذاً. وأفترض أيضاً أنها أرادت أن تضع مسافة بينك وبين تلك الأحداث المريعة.

- أرادت بداية جديدة، وهذا ما وجدته.

- قام بخفق البيض في وعاء عميق، ثم أضاف إليه الجبنة المبروشة وطحن فوقه البهار بنشاط كبير مبالغ فيه، تابع بضيق: «لسوء الحظ، لم أكن جزءاً من تلك البداية.. مرري لي وعاء الملح، من فضلك».

- ما الذي تقصده بقولك إنك لم تكن جزءاً من تلك البداية؟

أعطته ناتالي وعاء الملح، ثم حدقت به، وقد علا وجهها تجهم خفيف.

- لا تقل لي إنها تخلت عنك؟!

www.elromancia.com

- ليس على الفور.

أصبح اللحم جافاً وأشقر اللون، فرفعه عن النار ووضعه فوق مزيج البيض، بعدئذ أشعل النار تحت وعاء من الماء تركه يغلي على المدفأة، ثم أضاف له ملعقة من الملح، وعندما بدأت المياه بالغليان، وضع في داخلها المعكرونة.

- تزوجت أمي بعد أن اصبحت في السادسة من عمري، وعندما قرر زوجها الجديد أنه لا يريد أن يحمل عبء طفل مزعج هو ابن رجل عصابة، أرسلتني للعيش مع عائلة والدي.

شهقت ناتالي مخطوفة الأنفاس، وقالت: «كيف يمكن لأم أن تفعل ذلك مع صبي صغير.. مع ابنها الوحيد؟»

رفع كتفيه قائلاً: «أرادت أن تحطمني، لكنني لم أهتم لذلك، فجدتي منحتني كل الأمومة التي كنت بحاجة لها. عندما ماتت..».

توقف ديمتريو عن الكلام، بعد أن اجتاحته موجة غير متوقعة من الحزن. خمسة عشر عاماً مرت على وفاة جدته، خيل إليه خلالها أنه شفي تماماً من خسارتها. إلا أنها عادت تملأ أفكاره منذ أن عاد إلى الفيلا، فهو يراها في حديقتها تعتني بأزهارها الغالية، ويسمعها تدندن له لينام في سريره. كانت تنتظره عندما وصل إلى عتبة بيتها، طفلاً مشرداً يحمل حقيبة تحتوي بعض الثياب ولعبة على شكل دب صغير ممزق، حتى إنه يشم رائحة عطرها في خزانة الثياب في غرفة النوم الرئيسية.

قالت ناتالي تحثه على الكلام، بصوت ناعم مليء بالعاطفة: «ماذا؟ ما الذي حدث بعد ذلك؟»

ظل يبكيها لمدة أسبوع. كانت تلك الدموع الأولى التي انهمرت من عينيه منذ أن ابتعدت عنه أمه، وتركته مع امرأة تعمل في شركة طيران إيطاليا رافقته طوال الرحلة إلى إيطاليا. تباً!

اللطف والاهتمام اللذان تبديهما ناتالي يدفعانه بشكل خطير إلى البكاء من جديد الآن. ألا يكفي ما تفعله تلك المرأة بأحاسيسه ومشاعره، لتأتي الآن فتحطم حصن الدفاع الذي بناه حول عواطفه، فتمزق قلبه الذي ما زال مليئاً

بالجراح؟ إنه أمر لا يحتمل بدون أي شك.

ما إن نضجت المعكرونة بشكل كافٍ، اتخذ ديمتريو من ذلك عذراً ليستدير مبتعداً عنها. رفع الوعاء عن النار، وسكب الماء في المغسلة، ثم انشغل بوضع اللحم ومزيج البيض فوق المعكرونة الحارة. من دون ان تسأله، بدأت ناتالي بتوزيع الأواني التي هيأها من قبل على طرف الطاولة، ثم نزعت مناشف ورقية من لفة الورق الموضوعة فوق المغسلة.

- مناشف ورقية بدلاً من المناديل المطرزة، وأوانٍ فخارية بدلاً من الخزف الصيني. هذا لا يشبه ما أنت معتادة عليه. أليس كذلك، أيتها الأميرة؟

قالت: «توقف عن محاولاتك بأن تبدو غير مثقف. ما إن تنتهي من العمل في غرفة الطعام، حتى تذهب وتشتري كل الأواني الصينية والكريستال التي يشتهيها قلبك، وعندها سوف تحتفل بأناقة لا مثيل لها».

- أشك بأن تكوني هنا عندما يحدث ذلك.

- لن تتمكن من التخلص مني بسهولة، ديمتريو. لن أذهب إلى أي مكان، في الوقت الراهن.

أعطته ملاحظتها الأخيرة المدخل ليسأل سؤالاً يدور في ذهنه منذ اليوم الذي وصلت فيه إلى فيلا جدتها.

- ما هو الوقت الذي تتوقعين أن تمضيه هنا؟

- حتى آخر الصيف.

- وماذا ستفعلين طيلة ذلك الوقت؟

- لا شيء. أنا في إجازة وهذه هي الإجازة الأولى التي أحصل عليها منذ أكثر من ثلاث سنوات.

بكلمات أخرى، ستبقى مصدراً دائماً للتوتر ولتشتيت أفكاره، كما أنها ستكون مصدر إغراء بريء له للأشهر الثلاثة القادمة، أمر رائع! فهذا تماماً ما يحتاجه!

قالت: «أعطني سكيناً. سأتولى أنا تحضير البندورة، بينما تسكب أنت الكاربونارا».

أجبر ديمتريو نفسه على التفكير في إعداد الطعام، فقدم لها سكيناً حاداً وهو يقول: «بالنسبة إلى امرأة ترعرعت وهي محاطة بالخدم الذين يلبون كل طلباتها، لا أظن أن خبرتك في تقطيع الخضار تزيد عن خبرتك في الاعتناء بالحديقة. حاولي ألا تقطعي رؤوس أصابعك وأنت تقطعينها. اتفقنا؟»

ضحكت لكلامه، ومرة ثانية أجبر نفسه على الاستدارة والنظر بعيداً؛ رنة ضحكتها، لمعان عيناها، بشرتها الناعمة كالحرير واستدارة عنقها وهي تميل برأسها إلى الوراء، تهدد بقوة سيطرته على نفسه.

قال لها: «لا تمضي الليل بطوله وأنت تقومين بذلك، فالمعكرونة أصبحت جاهزة».

ودفع نحوها طبقاً واسعاً وإبريقين زجاجيين يحتوي أحدهما على الخل والآخر على الزيت.

تناولت ناتالي العشاء في ضوء الشموع في أشهر مطاعم العالم، وفي أجمل مدن العالم، تارة كضيفة دبلوماسية، وتارة أخرى كسليلة إحدى العائلات الأرستقراطية، أو كرئيسة لشركتها العالمية. تناولت وجبات أعدت من قبل طهاة ذوي شهرة عالمية، إلا أنها لم تتأثر يوماً بالأجواء الرومنسية كما تأثرت هذه الليلة، وهي برفقة ديمتريو، في ذلك المطبخ القديم الواسع. حيث تحولت قطعة خشبية واسعة إلى طاولة طعام، عليها طبق واحد من المعكرونة كطعام رئيسي.

إنها غلطة ديمتريو. لو أنه ترك المصباح الوحيد في الغرفة مضاءً، لما وجدت نفسها محاطة بمثل هذا الدفء وهذا السحر. لفتهما دائرة من أضواء الشموع جعلت ما تبقى من مساحة الغرفة يتقلص ويتحول إلى ظلال ملونة، وتشابكت نظراتها بنظراته معاً، وتحول صوتهما إلى همس أجش وهما يتبادلان نتفاً من الأحاديث المتعلقة بحياتهما الشخصية.

قالت تخبره: «أحببت المدرسة كثيراً».

قال: «أنا كرهتها كثيراً»

استغرقت في الذكريات متابعة: «كان كل يوم مليئاً بالوعود، وكنت أنام

كل ليلة وأنا أحلم بما سيحمل لي الغد من مفاجآت!».

-لم أنم ليلة واحدة نوماً عميقاً، خشية أن أستسلم للكوابيس.

مدت يدها عبر الطاولة، ولفت أصابعها حول أصابعه، وسألته: «أي نوع من الكوابيس؟»

- النوع الذي لا يتبخر ولا يندثر حتى في ضوء النهار.

لمعت عيناه بالألم، وبدا الحزن على وجهه وهو يتابع: «ما زلت أذكر ليلة محددة، كأنها حدثت البارحة؛ استيقظت على صراخ امرأة شابة مسكينة تتوسل جدي ليحافظ على حياة زوجها، تسللت خارجاً من غرفتي، وراقبت ما يجري من قاعة الموسيقى.

«لم تتجاوز المرأة العشرين من عمرها يومها، رأيتها راكعة على ركبتيها عند قدمي جدي، وهي حامل في الأشهر الأخيرة. في ذلك الوقت اعتقدت أنها سمينة فقط.. رأيت زوجها واقفاً إلى الجانب الآخر ويداه مربوطتان وراء ظهره، وبدا وجهه شاحباً وهزيلاً. راحت المرأة تنتحب قائلة: «أنا أحمل طفله دون برتولوزي... أنت لديك عائلة، وتعرف ما معنى الحب.. كيف يمكنك أن تحرم هذا الطفل الذي لم يولد بعد من والده؟»

تجمدت ناتالي في مكانها، فالألم الذي نضح من صوته جعل بشرتها تقشعر من الخوف والحزن معاً، قالت: «ما الذي حدث؟»

- سقط صراخها في أذني جدي الصماء. لم يتحرك، بل أومأ برأسه إيماءة خفيفة، ثم تنحى جانباً، بينما ظهر رجاله فجأة من الظلام، فسحبوا زوجها إلى الخارج، ثم رموه في سيارة وأخذوه بعيداً.

حدق ديمتريو في كوبه، وغاص في صمت مقلق كئيب بسبب ذكريات لا يمكنها أن تتصورها ولو في أغرب أحلامها.

أخيراً استأنف كلامه: «لم أعرف مطلقاً ما الذنب الذي اقترفه ذلك الرجل، لكن النظرة التي ارتسمت في عينيه وهو ينظر إلى زوجته النظرة الأخيرة، تلك النظرة المليئة باليأس المطلق والخوف والضياع، طاردت أحلامي لأشهر طويلة بعد ذلك الحادث».

www.elromancia.com

تأثرت ناتالي إلى درجة لا يمكنها وصفها فقالت: «دمتريو! أشعر بالأسى لأنك شاهدت أشياء مخيفة ومرعبة كهذه. كم كان عمرك في ذلك الوقت؟»

- كنت في السابعة أو ربما في الثامنة، لا أعرف بالتحديد.

- يا إلهي! لو أن جدتك علمت...

- هذا ماحدث بالفعل! وجدتني جدتي جاثماً في الصالة.. لا أدري كيف حصل ذلك.. ربما صدر عني صوت ما، أو ربما ذهبت إلى غرفتي لتتفقدني قبل أن تذهب إلى غرفتها.. أتذكر أنها أتت من غرفة الجلوس الخاصة بها في الطابق العلوي، وحملتني إلى سريري، وبقيت بقربي إلى أن غفوت. في اليوم التالي، لم ألاحظ أي شيء غير عادي في الفيلا، وبدا كأن شيئاً لم يحدث في الليلة السابقة. لم تذكر جدتي ذلك الحادث مطلقاً، وأنا كذلك.

- لِمَ لم تأخذك بعيداً، وتترك ذلك الزوج المتوحش؟

- لأنها عرفت أنه لن يدعها ترحل أبداً، وإن حاولت ذلك فسوف يجد وسائل لمعاقبتها. لا يمكنك أن تتخيلي أساليبه الجهنمية.

أهي تلك الوحشة المطلقة التي رأتها على وجهه ما جذبها إليه إلى درجة لا تقاوم؟ أتراها لهذا السبب تشعر برغبة قوية في أن تمسح ذلك الفراغ من عينيه وتملأ روحه بالأمل والدفء والإيمان بالخير في الحياة؟ ربما، أو ربما يعلمها حدسها الأنثوي أن لا شيء يمحو ذلك الخوف والحزن الساكنين في مخيلته إلا حب امرأة.

تمتمت وهي تشده بعيداً عن الطاولة: «لنصعد إلى الطابق العلوي، دمتريو. أريد أن أرى غرف المنزل الأخرى»

قال: «لا أعتقد ذلك، أيتها الأميرة. يبدو لي إنها ليست فكرة جيدة على الإطلاق».

اقتربت منه بدلال وهي تهمس: «ثق بي، إنها أفضل فكرة في العالم!

بطريقة ما، وجدا نفسيهما يسيران عبر القاعة الكبرى، حتى وصلا إلى الدرج المتفرع. ومن هناك صعدا إلى الطابق العلوي، وتجولا في الغرف التي تخلو من الزخرفة حتى وصلا إلى الغرفة التي كان يشغلها وهو طفل صغير،

والتي ما تزال غرفة نومه حتى اليوم. عرفت ناتالي ذلك من ثيابه المعلقة في الخزانة المفتوحة، رأت في هذه الغرفة أغطية ووسائد وقد وضع غطاء رائع الصنع على السرير، أما على الطاولة الصغيرة الموجودة بقرب السرير فهنالك مصباح صغير وكتاب مفتوح، كذلك فإن النوافذ الضيقة مفتوحة لهواء الليل المنعش وللسماء المضاءة بالنجوم الساطعة.

مع ذلك فوجودها معه جعل الهواء مثقلاً بالتوتر.

كسرت ناتالي دائرة الصمت المربك قائلة: «بالكاد يبدو هذا السرير كافياً لرجل بحجمك»

- إنه يخدم الهدف الذي وجد لأجله، حتى الآن.

- لو كنت مكانك لنمت على هذه الأريكة، فهي تبدو أكثر اتساعاً منه.

قالت ذلك وتوجهت نحو الأريكة، فجلست عليها ومددت ذراعيها في الاتجاهين قبل أن تتابع قائلة: «إنها كبيرة حتى لتكاد تتسع لشخصين معاً، تعال... اجلس لتتأكد من وجهة نظري»

استدار دمتريو نحوها وقال بصوت حازم: «توقفي عن القيام بذلك، ناتالي. هذا يكفي!».

وقفت ناتالي ثم اقتربت منه ووضعت يديها على كتفيه قائلة: «يمكنني البقاء هنا الليلة، سأنام أنا على السرير وأنت على الأريكة، وهكذا نمضي بقية الليلة معاً، ما رأيك؟».

قال بصوت أجش: «ساحرة!»

أدرك دمتريو أن عليه أن يرفض عرضها فهو لا يريدها أن تتعلق به، لكن شيئاً في داخله أغراه بالقبول، وهل من شيء أروع من الاستيقاظ صباحاً على رؤية وجهها الملائكي والتمتع برفقتها؟

شعر بقطرات من العرق تتصبب على جبهته، حاول الابتعاد عنها مبقياً إياها على بعد ذراع منه.

- اذهبي إلى منزلك، قبل أن أنسى أنني أحاول السيطرة على نفسي والتصرف كسيد نبيل.

www.elromancia.com

- أريد أن أبقى معك، دمتريو. من فضلك، لا ترسلني بعيداً.

- أنت فقط متأثرة بما سمعته مني قبل قليل.

لم تكن ناتالي متأثرة بما سمعته، إلا أنها أدركت أن دمتريو - ولأول مرة منذ تعرفت إليه - شاركها بخبايا نفسه من دون أن تسحب الكلمات من فمه كلمة بعد أخرى. لقد سمح لها بمعرفة شذرات من ماضيه، وباح لها بأحاسيس كامنة في داخله لا مجال للشك بها مطلقاً، ومع كل كلمة وكل نظرة، كان يشق طريقه بعمق أكثر نحو قلبها.

إن الانسجام والتفاهم اللذين غمراهما هما أعمق بكثير من قدرتها على التخلي عنه، على الرغم من أن لقاءهما لم يدم لأكثر من ساعات معدودة. بدا كأنها وصلت إلى قرار حاسم حين نظرت إليه قائلة: «توقف عن الجدال وعانقني».

٨ - عودي إليَّ

يا إلهي! إنه يتحرق شوقاً إليها منذ أن وقعت عيناه عليها. ضمها إليه في عناق حار ليطفئ نار ذلك الشوق التي ألهبت مشاعرهما معاً.

لم يعرفا كم من الوقت مر عليهما وهما يتبادلان العناق، شعر كل منهما أنه ألقى عن كاهله كل هموم حياته، بعد أن وجد رفيق روحه.

- أحبك!

شعرت ناتالي بالحب يغمر قلبها ليملأ صدرها بهجة وسعادة، حتى إنها لم تعد قادرة على كتمان تلك الكلمات في داخلها.

ساد صمت مطبق في الغرفة، بعد أن تجمد دمتريو في مكانه دون حراك، فبدا هادئاً.. هادئاً جداً، قال: «هل أنت بخير؟»

أربكتها ردة فعله، فقالت: «لماذا تسألني؟ ألانني قلت إنني أحبك، وأنت تعتقد أنني قلت ذلك متأثرة بحرارة عناقنا فقط، وأنني سوف أندم على ذلك في ما بعد؟».

أطلق دمتريو تنهيدة تنم عن قلة الصبر أو.. ربما الندم أو التوتر، ثم قال: «من الطبيعي أن أسألك، يبدو واضحاً أنك تفتقدين إلى التجربة في العلاقات العاطفية، إن أي رجل في مكاني سوف يهتم لذلك».

- آه أنت لست أي رجل.

أمسكت يده ووضعتها بنعومة على صدرها، ثم تابعت: «هل تشعر كيف تتسارع دقات قلبي، دمتريو؟ وأنت تعلم أنك السبب. تأكد أن عقلي لم يكن يوماً أكثر صفاء مما هو عليه الآن. أنا حقاً أحبك».

مرة ثانية خيم الصمت على الغرفة كأنه ستار ثقيل اسدل في المشهد الأخير

www.elromancia.com

للمسرحية، مبدداً الأجواء الرومنسية العاطفية التي تشاركا بها، حتى الليل أصبح أشد ظلمة بعد أن اختفى القمر وراء شجرة كبرى. أخيراً قال دمتريو بصوت ملؤه التهذيب، ما ارسل قشعريرة من البرد في عمودها الفقري: «أظن أنه يجدر بك الرحيل الآن، قبل أن تكرهيني».

مرة ثانية لمست ناتالي خده بنعومة وقالت: «لا أستطيع مطلقاً أن أكرهك».

أبعد يدها عن وجهه مبدياً انزعاجه، ثم قال: «اذهبي إلى بيتك، أميرتي».

على الرغم من عدم خبرتها العاطفية، إلا أن القسوة التي ظهرت في نبرة صوته أنبأتها، دون أي شك، أنه يرغب في إبعادها عنه. نزلا معاً إلى المطبخ، وعندما أراد أن يرافقها إلى منزلها، أوقفته برفع يدها معترضة: «تمكنت من التحمل طيلة السهرة على الرغم من قسوتك وعنادك، وأعتقد أنني أستطيع أن أقطع المسافة بين منزلينا بمفردي».

الجرح الذي اصاب كبرياءها جعل صوتها يبدو متصلباً وكذلك عمودها الفقري، ما ينم عن حزم وإرادة شديدين.

تمكنت من القول بصعوبة: «عمت مساء، دمتريو».

ثم اختفت في الظلام من دون أن تضيف كلمة أخرى.

كان الوقت متأخراً جداً، فالساعة تقارب منتصف الليل. فكرت ناتالي أنها تستطيع التسلل خلسة إلى غرفتها من دون أن يلاحظها أحداً، لكن ما إن دخلت متسللة بصمت من الشرفة إلى غرفة الجلوس ثم إلى القاعة الكبرى، حتى فتح الباب الرئيسي، وما هي إلا لحظة حتى وجدت نفسها مسمرة تحت أنوار الثريا المعلقة فوق الدرج الملتوي، وجدتها تحدق فيها بانبهار شديد.

سمعت نفسها تقول متلعثمة: «اعتقدت أنك خلدت إلى النوم منذ وقت طويل».

شعرت بالذنب كأنها تلميذة مدرسة داخلية ضبطت.

أجابت باربرا بحزم بنبرة ملؤها الاستنكار: «هذا ما اعتقدت أنك ستفعلينه طيلة الأمسية، لكن من الواضح أنني أخطأت، هل أستطيع أن أسألك أين

كنت..».

توقفت عن الكلام وجالت بنظرها على ناتالي محدقة بحذائها الذي يتدلى من بين أصابعها، قبل أن تتابع: «...كي تعودي إلى المنزل متسللة كما أنت الآن؟»

شعرت ناتالي أنها حزينة ويائسة جداً إلى درجة لم تحاول معها التفكير بتلفيق أية كذبة.

قالت ببساطة: «أنت تعرفين جيداً أين كنت جدتي، لذلك لا داعي لممارسة الألاعيب، لقد تناولت العشاء مع دمتريو برتولوزي».

- وهل دام العشاء حتى هذه الساعة؟ كم عدد الأطباق التي قدمها؟

تمالكت ناتالي أعصابها كي لا تعترف لها أنه بقدر ما كان العشاء لذيذاً وممتعاً فإن التحلية التي تلته في الطابق العلوي كانت مسببة للصدمة. رفعت كتفيها بعد أن تمكنت من الحفاظ على رباطة جأشها.

- إنها توازي ما قدمته مريانا سورينتينو. على ما أعتقد، ما دمت أنت أيضاً وصلت الآن لتوك إلى المنزل، وقبل أن تبدأي بالإسهاب من جديد حول حماقة ما أفعله بالتقرب من دمتريو، لا بد أنك ستشعرين بالسعادة إذا ما عرفت أنه يوافقك الرأي، فالطريقة التي افترقنا بها الليلة، تجعلني أشك بأن يدعوني إلى زيارته من جديد.

افتر ثغر جدتها عن ابتسامة مقتضبة قبل أن تصرح قائلة: «إذاً، لن أضيف أية كلمة أخرى، حتى عبارة «سبق أن قلت لك ذلك!».

* * *

أمضى دمتريو معظم الليل وهو يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. راح يشتم نفسه تارة بسبب ضعفه واستسلامه لعناقها، متذكراً الألم الذي سببه لها بعد ذلك، والوضع الصعب الذي وصلا إليه معاً، ويشتمها تارة أخرى بسبب إيمانها العنيد بأنه يستحق حبها.

إنه في الرابعة والثلاثين من عمره وهو مشهور بعلاقاته بالجنس الآخر، لكنه أيضاً قاسٍ. أعتاد أن يكون كذلك، ليتمكن من البقاء حياً تحت رعاية

www.elromancia.com

جده. لو لم يكن كذلك لمات منذ وقت طويل. في نهاية الأمر تمكن من بناء حياة جديدة، محققاً النجاح في حياته، كما تمكن أيضاً من بناء صداقات مع عدد من الأشخاص المحترمين المعروفين بنزاهتهم واجتهادهم.

لكن هذا لا يعني أنه نسي ما معنى أن يكون المرء في الجهة الأخرى من الحياة. هنا يكمن الفرق الذي لا يمكن التغلب عليه بينه وبين ناتالي.

إن سمح لها بأن تدخل إلى قلبه والله وحده يعلم كم يرغب ذلك سوف تكتشف بطريقة قاسية جداً أمراً فهمه هو منذ وقت طويل عندما كان طفلاً: رفضه من قبل المجتمع الذي يضمها إليه بكل فخر وحب. عندها سوف تصاب بجرح لن تشفى منه أبداً. لن تتمكن ناتالي من تجاوز صدمة قاسية كهذه، وهو لن يسمح لها بأن تستدرجه ليثبت لها ذلك.

كان بإمكانه أن يجعل الأمور أكثر سهولة بينهما، لو أنه شرح لها لماذا يقدم نفسه للمجتمع كرجل عادي فقير ورث هذه الفيلا المهدمة، لكنه أقسم منذ زمن بعيد ألاّ يبرر تصرفاته لأي كان.

أولئك الأشخاص الذين يحيطون بها، جعلوا حياة جدته بائسة وحزينة، وهو لا يستطيع تغيير نفسه إلى درجة تمنعه من الإحساس بالسعادة والرضى حين يأتي الوقت المناسب ويندمون على ما قاموا به. لن تتمكن ناتالي من رؤية ذلك الآن، لكنه يقدم لها خدمة بإبقائها بعيدة عنه، لأن الجميع سوف يكرهونه عندما ينفذ انتقامه. جدتها وأصدقاؤها لن يسامحوه مطلقاً لأنه سيكون قد سخر منهم، وأثبت لهم أنهم أغبياء، وإن كانت ناتالي تسانده وتناصره، فهم لن يغفروا لها أيضاً.

* * *

بعد مرور أربعة أيام، ذهب دمتريو إلى بوستيانو ليعاين معدات محلية الصنع لدى سمكري يقيم هناك، وعندما عاد إلى شاحنته، وجد العجلة الخلفية مثقوبة.

اجتاحه الغضب بشكل لا يحتمل، فرفس العجلة المثقوبة بقدمه. صحيح أن الشاحنة تبدو قديمة لكن العجلات جديدة، لذلك استغرب الأمر، ولم

يعرف السبب الذي أدى إلى ثقبها. أما الأسوأ من ذلك كله فهو أنه مضطر إلى إفراغ الشاحنة من المواد التي اشتراها للتو ليتمكن من الوصول إلى العجلة الاحتياطية، في هذا الطقس ذي الحرارة المرتفعة الخانقة.

أطلق زفرة طويلة قائلاً بتذمر: «يا لها من نهاية سيئة لأسبوع سيء، إنه أشبه بالجحيم».

أفرغ كل المعدات من الشاحنة، وأخرج العجلة الاحتياطية والرافعة.

- تباً لهذه العجلات الرديئة!

- هل تحتاج إلى المساعدة؟

رفع دمتريو نظره، فالتقت عيناه بنظرات رجل يمر بقربه. بدا الرجل في الثلاثين من عمره، يرتدي بنطلوناً قصيراً وقميصاً قطنية قصيرة الكمين، وينتعل حذاء رياضياً ويحمل آلة تصوير علّقها حول عنقه، وقد تخلل شعره الأسود الداكن، بضع خصلات من اللون الأشقر، فيما تدلى قرط فضي صغير من أذنه اليسرى. الانطباع الذي يعطيه هذا الرجل للمشاهد العادي هو أنه مجرد سائح يتجول مستمتعاً بالمناظر المحيطة به، أما دمتريو الذي يملك تجارب كافية مع الشرطة تعود إلى أيام شبابه، فيتعرف مباشرة على الشرطي المتخفي ما إن يصادفه، حتى لو راح هذا الأخير يبتسم له بمودة.

رفع محور العجلة بمفتاح الربط، وبدأ يفك المسامير، ثم قال: «منذ اللحظة التي أعلنت فيها عن اسمي وأدرك الناس من أنا، أظن أنني أصبحت شخصاً مشكوكاً بأمره في هذه المنطقة».

انحنى الرجل قربه، وعرف عن نفسه بصوت منخفض: «التحري كريستوفاني روسو».

بدا الأمر بالنسبة للناظر إليهما كأن الرجل يقدم له المساعدة في إصلاح عجلة الشاحنة. تابع الرجل قائلاً: «أعلمك أن اسمك هو نقطة لصالحك وصالحنا معاً، في هذه الفترة».

- وكيف ذلك؟

- أتى لزيارتك شخص منذ عدة أيام... مستثمر يدعى كاتانسكا.

- أتقول لي إنني تحت المراقبة؟

- أنت لست كذلك سنيور بل كاتانسكا، فكل تحركاته تثير الشبهة لدينا.

- إذاً، من المحتمل أن تكون قد عرفت أنه يريد شراء الفيلا.

هزّ روسو رأسه، وأجاب معلقاً: «أراد امتلاكها منذ وقت طويل، واعتقد أنه سيحصل عليها في نهاية الأمر، حتى ظهرت وبدأت في ترميمها وإعادتها إلى سابق عهدها».

- وأنت مهتم بالأمر بسبب...؟

- وضع خطة تقضي بتحويل أرضك إلى مجموعة من عشرين منزل صغير، وبذلك سيضيف إلى ثروته مبلغاً ضخماً ببيعها بأسعار خيالية.

- في تلك المنطقة؟

استمر دمتريو في العمل بسرعة لينزع العجلة، ثم نظر إلى الشرطي باستهزاء وهو يتابع: «لا مجال لذلك مطلقاً، إتحاد المقيمين سيصوت ضد ذلك العمل».

- سيفاجئك أن تعلم إلى أي مدى وصلت علاقات كاتانسكا خلال السنوات الماضية.

قدم روسو له المسامير بينما كان يضع العجلة الاحتياطية في مكانها، شارحاً له في الوقت نفسه مقدار الفساد الذي يستخدمه هذا الرجل في أعماله والمساوئ التي ينشرها في هذه المنطقة.

- كاتانسكا قرش كبير في عالم المال فهو يدين المال بفائدة عالية، متستراً وراء قناع مستثمر كبير. اشتهر الرجل بتعامله في السوق السوداء، وهو يعتمد الرشوة والمراوغة للتملص من القوانين، كما يقوم بخداع مالكي الأراضي مخفياً عنهم القيمة الحقيقية للأراضي التي يشتريها منهم، وباستعمال مواد بناء رديئة. إنه يتمادى بأعمال السوء من دون أن يتم القبض عليه ولو لمرة واحدة، ونحن نعتقد أن بإمكانك مساعدتنا على القيام بذلك.

تراجع دمتريو إلى الوراء حتى جلس على عقبيه، بعد أن تفاجأ مما سمعه: «ولِمَ أنا؟».

- أنت الشخص المثالي المؤهل لهذا العمل، رجل متحدر من عائلة ذات

تاريخ يحتمل كل نوع من الشك، يعمل على ترميم منزل بحاجة إلى ثروة، وهو لا يملك ما يدل على أنه قادر على الوفاء بالتزاماته.

سارع دمتريو إلى القول: «توقف عند هذا الحد! أولاً، الأمور ليست فعلياً كما هي في الظاهر، ثانياً، أنا لا أرضى بتعريض سمعتي للشبهة حتى لأجل خدمة الشرطة».

- أجرينا بحثاً شاملاً عنك، ونحن ندرك جيداً أن هناك الكثير من الأمور المتعلقة بك التي لا تظهر للعيان. سنيور، نحن لا نطلب منك أن تخون مبادئك، فنزاهتك بالتحديد هي ما جعلتك الرجل المثالي للعمل الذي نفكر فيه. إن أسوأ ما يمكن أن نطلبه منك هو أن توافق على التعامل مع كاتانسكا، كي نتمكن من مراقبته عن كثب، وتبقي اتفاقنا طي الكتمان الشديد.

- رجعت إلى هنا لأشعر بالسلام والطمأنينة، ولأجعل جيراني يقتنعون بأنني أستحق العيش بكرامة، وأنني لا أريد أن أبدأ حرباً معهم، وهذا أمر لا يمكن تحقيقه إذا ما عرف عني أنني أتعامل مع شخص مثل كاتانسكا.

-ما إن نحقق هدفنا، سوف نعلن بوضوح تام براءتك من أي تورط معه، ومن الطبيعي أن نعطيك تعهداً خطياً بذلك.

توقف روسو عن الكلام لفترة كافية ليقنع دمتريو أنه يحتفظ بأفضل ما لديه ككلمة أخيرة.

- في النهاية سيكون الأمر لمصلحتك أيضاً، سنيور. فبالنسبة إليك، هذه صفقة رابحة في مطلق الأحوال، وإذا قمت بهذا العمل، فإنك لن تحصل فقط على احترام جيرانك، بل ستحصل أيضاً على امتنانهم وإعجابهم بك.

يا له من عرض مغرٍ!

- لكنك لم تخبرني بعد ما الذي تريد مني أن أفعله.

- في الوقت الراهن...

ساعده روسو ليعيد المعدات إلى الشاحنة، ثم صافحه وهو يقدم له بطاقة عمل، ثم تابع يقول: «.. خذ يوماً أو أكثر لتفكر بما قلته لك، وإن قررت الموافقة، اتصل بي».

www.elromancia.com

- حسناً! لكن بدون أية وعود.

- أتفهم ذلك!

أغلق دمتريو الباب الخلفي للشاحنة، وقال: «شكراً على المساعدة».

- على الرحب والسعة.

* * *

استلقت ناتالي على بطنها فوق منشفتها على الشاطئ الرملي الساحر، متمتعة بحرارة الشمس المنعشة وهواء البحر اللطيف، مصغية إلى صوت تصارع الأمواج البعيدة عنها. انتابتها حالة من الخدر الذهني المحبب ساعدتها على نسيان الألم القوي الذي تشعر به في قلبها، تذكرت بصورة ضبابية النقاش الذي دار بينها وبين جدتها هذا الصباح.

- أنا مدعوة إلى حفلة في كابري، تعالي معي، ناتالي، سيكون هناك الكثير من الأشخاص في مثل سنك، عزيزتي، وأنا متأكدة من أنك ستستمتعين.

بالطبع! جدتها تريد لها كل الخير، لكنها لا تدرك أن ناتالي في وضعها الحالي، لا تستطيع أن تتعامل مع هذا الاهتمام الذي تظهره باربرا.

قالت: «شكراً جدتي، لكنني سأتمكن من التعامل مع حالتي بطريقة جيدة».

- لكن الوحدة ليست أمراً جيداً، عزيزتي. أنت بحاجة إلى الخروج من المنزل.

- أنا أفعل ذلك كل يوم.

- البقاء ساعات بمفردك على الشاطئ، ليس ما أعنيه بالتحديد.

الشاطئ هو المكان الذي تهرب إليه، حيث تستطيع أن تبقى بمفردها لتعالج جروحها العاطفية.

قالت تجادلها: «الهواء منعش هناك، كما أنني أفضل السباحة في البحر».

هذا صحيح بالطبع، ففي الأيام الأخيرة، ارتفعت درجة الحرارة بشكل كبير، ما جعل المياه في بركة السباحة في المنزل حارة إلى درجة لا تحتمل.

هزّت جدتها رأسها وهي تقول: «من يعرف ما الذي تحتوي عليه مياه

البحر، عزيزتي، هناك حشرات وعوالق.. أما بالنسبة لصعودك ونزولك عبر المنحدر الصخري.»..

- التمارين الرياضية مفيدة لي.

- حسناً! أعتقد أن أي شيء تقومين به هو أفضل من إضاعة وقتك مع ذلك الشخص المخيف دمتريو برتولوزي.

على الرغم من حالة الخدر التي تسيطر عليها، فإن تذكر اسمه جعل أصابعها تنكمش فوق الرمال الساخنة.

- لا أريد أن أتحدث عن هذا الرجل جدتي! وإن أصريت على التحدث عنه في كل فرصة سانحة، سابدأ في النوم على الشاطئ أيضاً. اذهبي إلى كابري، واستمتعي بوقتك، سأكون بخير هنا بمفردي.

بعد أن أوضحت ما تريده تماماً، غادرت جدتها المنزل، واستسلمت ناتالي للسلام والهدوء اللذين تشتاق إليهما روحها. لا بد أنها غفت، وهو أمر تفتقده بشكل تام في الليل. تنهدت متأوهة، وتركت الإحساس بالاسترخاء يسيطر عليها، والظلام يخيم على أفكارها.

إنها في قطار في طقس ماطر بارد، وهي تستطيع أن تسمع صوت محركه البخاري، وتستطيع أن تشعر بلسعة باردة على كتفيها العاريتين، تبدل الطقس فجأة فغدا صيفاً، وشعرت بزخة غريبة من المطر تصفق خدها.

استيقظت وخبأت وجهها بالمنشفة ما إن تطاير عليها رذاذ من الرمل الرطب. شعرت بلسان دافئ يلامس أذنها، وأظافر صغيرة تنغرز في ذراعها... غمرها فرح كبير أنساها كل أثر للنعاس، ما إن تنشقت رائحة الجرو، وشعرت بأنفاسه الرطبة. أدارات وجهها فإذا وجه يبو أمامها تماماً.

- آه! قطعة الحلوى...

جلست على ركبتيها، وأمسكت الكلب الصغير الرطب، وضمته إليها، ثم قبلته ولم تبال مطلقاً بتساقط الوبر والرمل عليها.

- كم اشتقت إليك! كيف عرفت أين تجدني؟

قال دمتريو، من مكان ما خلفها: «في الواقع، هو لم يعرف. أنا من

www.elromancia.com

أحضره إلى هنا».

هل يمكن للثلج أن يحرق؟ هل يمكنه أن ينزلق فوق بشرتها ويتركها مجهدة غير قادرة على التنفس لشدة حرارته.

تابع ديمتريو: «إنا آسف! لو علمت أنك هنا، لما..».

لم تجرؤ على الاستدارة والنظر إليه. هزت رأسها وهي تقول: «لا داعي للاعتذار، فأنا لا أملك الشاطئ».

- ومع ذلك، ما كان عليّ إزعاجك.

- لم تفعل.

- كنت نائمة.

- لا، كنت أهم بالمغادرة.

أطلقت سراح بيبو، وأمسكت بمنشفتها وحذائها، ثم وقفت على قدميها واستدارت نحو المنحدر. ولكن بدلاً من أن تنطلق، وجدت نفسها في مواجهة صدره... صدره العاري. لا شيء جديد في هذا، أليس كذلك؟ فهي لم تعرف مطلقاً رجلاً يكره ارتداء القميص مثله.

أمسك ديمتريو بمرفقيها، فشعرت بيديه حارتين وقاسيتين على بشرتها، قال: «أنت تكذبين، أميرتي»

ردت بقوة: «نعم. أكذب... لأنك لست قادراً على تحمل الحقيقة! والآن، أبعد يديك عني ودعني أرحل».

- لا!

-ماذا؟

فتحت فمها بغضب واستياء محدقة به. الرجال الذين تعرفهم... كما يحلو لديمتريو أن يسميهم، يعرفون أن ليس عليهم تجاهل كلام امرأة عندما تطلب منهم أن يتركوها وشأنها.

كرر من جديد: «لا».

- بإمكاني أن ألقي بك في السجن بسبب ذلك.

قال: «أميرتي!»

شدّها إليه بعناد، حتى كادت كلماته تلامس وجهها. تابع: «الأفكار التي تملأ رأسي الآن، وما أتمنى القيام به، قد يقودني للبقاء في السجن لعشر سنوات متتالية، لكنني وفي هذه اللحظة بالذات، لا أعير الأمر أية أهمية».

عانقها بيأس رجل مشرف على الغرق ويشهق محاولاً التنفس، بلهفة رجل ضائع ومشتت الأفكار. تنهد بقوة فبدا كأن تنهيدته تخرج من أعماق روحه، ولم تستطع ناتالي منع نفسها في مبادلته العناق.

لم يعرفا كم من الوقت مر عليهما وهما متعانقين.. ربما بيبو وحده يعرف، إذ نفد صبره أخيراً فنبح بقوة، وتعلقت مخالبه بساقي ناتالي. أطلق ديمتريو شتيمة خافتة، وابتعد عنها.

تراجعت ناتالي قليلاً، ووضعت يداً مرتجفة على وجهها.

-لِمَ فعلت ذلك؟

- ما السبب برأيك؟

تابع وعيناه مليئتان بالأسى: «لأنني لم أستطع التغلب على نفسي، ولأنني أحمق كبير، كما أنك هنا، والابتعاد عنك أمر يفوق قدرتي على الاحتمال».

- لماذا تعتبر نفسك أحمق؟

نظر حوله، وظهرت تلك الابتسامة العذبة المليئة بعدم المبالاة والتفاخر على وجهه.

-أنا أبعدتك عني، أليس كذلك؟

قالت، وهي تشعر بألم في حلقها: «صحيح».

-حسناً! ماذا سأقول؟ إنني أطلب منك العودة إليّ.

- لماذا؟

- انظري، إليّ، أميرتي! لماذا برأيك؟ لأنني أفتقدك كثيراً.

* * *

حتى تلك اللحظة، لم يكن قد اتخذ قراره بعد. لكن بعد أن ضمها بين ذراعيه، قرر أن يقبل عرض كريستوفاني روسو. سيقدم على أي عمل ليبرهن أنه يستحق فرصة أخرى معها.

www.elromancia.com

ثم جلس إلى جانبها وعانقها من جديد. غرقا معاً في عناق طويل، حملهما إلى عالم مليء بالسحر والبهجة. جلسا متقاربين لفترة، استمتعا بكل لحظة أمضياها معاً، كما لو أنهما وجدا بعضهما من جديد بعد فراق طويل.

قال لها وهو يضمها إلى صدره: «أتمنى أن نبقى معاً لأطول وقت ممكن!».

- أيعني هذا أننا ستقابل ثانية؟

قال: «تأكدي من ذلك، أنا أتطلع بشوق لقضاء أمسية برفقتك تحت ضوء القمر».

- وهل ستعد العشاء لي أيضاً؟

شعر بغصة من الندم لأنه مجبر على خداعها، لكنه قال: «ليس الليلة، أميرتي. لدي عدد من المشاغل هذه الليلة، ما رأيك في أن أقفز فوق السور، وأقابلك عند بداية الممر في أرض جدتك حوالى الساعة التاسعة؟ لا أريدك أن تسيري بمفردك في الظلام».

على الرغم من شعورها بخيبة الأمل، لم تظهر ناتالي ذلك بل قالت: «سألقاك هناك».

- سأكون بانتظارك.

ما إن وصل إلى المنزل، اتصل دمتريو بروسو، وبادره قائلاً: «هل هذا وقت مناسب للتحدث إليك؟»

أجاب التحري: «هذا يعتمد على ما ستقوله».

- إنني مهتم للأمر، إن كنت أستطيع المساعدة في التخلص من كاتانسكا، فيمكنك الاعتماد علي.

-هذا ما أملت سماعه. هناك مقهى في الهواء الطلق، في الساحة الواقعة خلف مركز الشرطة في بوستيانو. قابلني هناك غداً عند الساعة الحادية عشرة، لكن لا تقترب لتجلس إلى الطاولة التي أجلس عليها نفسها. سأعمل على أن تبقى الطاولة المجاورة لطاولتي خالية كي تجلس عليها أنت.

- حسناً! أراك غداً.

- إلى اللقاء.

تابع روسو مؤكداً ما قاله في المرة السابقة: «تذكر دمتريو! لا تتحدث بأية كلمة لأي كان، إذا انكشف ما نخطط له، سيضيع عملنا كله».

- هذا واضح.

* * *

بدا الليل ساكناً يغمره نور القمر، والأزهار تملأ الحديقة بأريجها العطر، كأنها ترحب بناتالي وهي تشق طريقها للقاء دمتريو في المكان الذي اتفقا عليه.

وجدته بانتظارها، وهو يحمل مصباحاً يدوياً، وغطاء مطوياً ملقى على ذراعه. قال: «مرحباً!»

ثم ضمها إليه معانقاً إياها بقوة، حتى إنها خشيت ألاَّ تتمكن بعد ذلك العناق من السير عبر المنحدر برباطة جأش لكن بالطبع، ما كان عليها أن تقلق. سار دمتريو أمامها، متوقفاً بين الفينة والأخرى ليضيء الطريق أمامها بنور المصباح. قادها بأمان حتى لامست قدماها الرمال التي لا تزال حارة. وضع الغطاء على الأرض، وسألها: «أتريدين أن نتمشى قليلاً؟»

- حسناً! لنتمشى قليلاً قبل أن نجلس.

سارا على الرمال الدافئة متشابكي اليدين. لم يتبادلا الأحاديث مطلقاً، بل أصغيا إلى صوت الأمواج المتهادية التي ترتطم بالشاطئ، لكن صمتهما هذا لم يحل دون إنسجامهما معاً برابط أقوى من الكلام. بدت تلك اللحظات رقيقة ومؤثرة، حتى إن ناتالي شعرت بالدموع تنهمر على خديها لشدة السحر الذي يحيط بهما.

عانقها دمتريو برقة وحنان جعلاها تشعر أنها أسعد امرأة في العالم. من الذي قال إن المال هو ما يصنع السعادة؟ أن تكون حبيبة مثل هذا الرجل لهي سعادة تفوق كثيراً ما أملت يوماً أن تعيشه، حتى إنها لم تفكر يوماً إن مثل هذه السعادة موجودة أساساً.

إنها الجنة على الأرض! تساءلت متعجبة كيف تمكنت أن تشك برجل يجمعها به مثل ذلك الانسجام، في الفكر والروح والجسد معاً.

* * *

www.elromancia.com

عندما دخل دمتريو المقهى وجد روسو بانتظاره. كان الرجل يقرأ جريدة الصباح، وهو جالس إلى واحدة من ثلاث طاولات وضعت في زاوية الساحة.

إلى الطاولة الثانية جلست سيدتان في منتصف العمر تتحدثان وهما تشربان القهوة. جلس دمتريو إلى الطاولة الثالثة، وأدار ظهره إلى روسو. طلب فنجان قهوة وراح يقلب صفحات جريدة تركها زبون سابق. علّق روسو: «هنالك مقالة جيدة في قسم الرياضة».

قلب روسو الصفحة، وأعاد الجريدة إلى أمام عينيه، ثم تابع: «قد ترغب في أخذها معك عندما تغادر. في الوقت الحالي، تظاهر أنك تهتم بقراءة العناوين، وانتبه لما ستقوله».

علقت المرأة الأقرب إليه من الطاولة الثانية: «هذه هي الخطة الرئيسية».

وبدأت تشرح له الخطة، بينما اقتربت صديقتها منها، وقد اتسعت عيناها، وكأنها لا تستطيع تصديق الأخبار التي تسمعها.

الخطة بسيطة وسهلة؛ عليه أن يتظاهر أن ماله قد نفد، وأنه لا يستطيع الحصول على قرض من المصرف، ثم يتقرب من كاتانسكا أملاً في مساعدته، فيطلب منه قرضاً لمدة ستين يوماً، ويوافق على رهن الفيلا كضمانة له، كما عليه أن يرضى بكل ما يقدمه له كاتانسكا، ويوافق على أي مقدار من الفائدة يريده، على أن يتظاهر دائماً أنه يشعر بالقلق طيلة مدة القرض.

تابع روسو: «إنها ستون يوماً. بمعنى آخر، هي الفترة الكافية لجمع الأدلة التي نحتاجها لنتمكن من إلقاء القبض عليه، وعندما يتم ذلك، سيكون عملك قد انتهى».

وضع دمتريو الجريدة على الطاولة، ومدّ يديه إلى أقصى ما يمكنه كأنه يتمطى.

- يبدو لي أن ذلك سيكلفني مبالغ طائلة.

قالت المرأة وهي تضحك: «لا، سنيور. من الناحية المالية لن تخسر شيئاً. نحن نطلب فقط تعاونك والقليل من وقتك. سيتم بيعك بضائع مسروقة ومواد رديئة، وسوف يجبرك كاتانسكا على قبول عمّال غير كفوئين يعملون لديه

بصورة دائمة. أنت خبير في ميدان عملك، وتعرف ما تريده. عليك أن تحتفظ بسجلات ووثائق عن كل شيء، وأن تعاين أي نوع من البضاعة يقدم لك. لن يغيب عن نظرك أي شيء، أتعتقد أنك تستطيع القيام بهذا العمل؟»

لقاؤه ليلة البارحة بناتالي، سمح له بأن ينام ملء جفونه طيلة الليل، لأول مرة منذ أسبوع، كما استيقظ عند الصباح مستعداً لمواجهة النهار بطاقة كبيرة وتفاؤل، وإن كانت هذه المهمة هي مجرد ثمن عليه تقديمه لاستعادتها في حياته، فسيدفع هذا الثمن بطيبة خاطر، حتى لو كان مضاعفاً ثلاث مرات.

- نعم يمكنني القيام بذلك، لكنني لم أفهم مدى فائدة عملي هذا.

- لا داعي لأن تفهم. ما تقوم به أنت هو عبارة عن جزء صغير من عملية كبيرة، وكلما كانت معلوماتك أقل عن الأمور التي تجري حول كاتانسكا، كلما كان القيام بدورك أكثر سهولة وتلقائية.

- لا تنظر الآن، لكن صديقنا كاتانسكا يقطع الساحة ويتجه نحونا.

نهض روسو بهدوء وهو يتابع: «أظنها فكرة جيدة أن تطالع صفحة الرياضة، وأن تأخذ الورقة الموضوعة هناك قبل أن تصبح موضوع اهتمامه».

ما إن أنهى كلامه حتى سار مبتعداً.

وجد دمتريو ورقة وحيدة موضوعة بين صفحتين من صفحات الأخبار الرياضية. طوى الورقة جيداً، ووضعها في جيب سترته الداخلي.

قالت المرأة: «يا له من توقيت جيد! لقد رآك سنيور، وهو يتجه نحو طاولتك مباشرة، إن كنت مستعداً، يمكنك البدء في الحديث منذ الآن».

فتحت حقيبة يدها، وأخرجت علبة صغيرة، ثم نظرت إلى المرآة ومررت أحمر الشفاه على شفتيها، بعدئذٍ نظرت إلى صديقتها وقالت: «هل انتهينا؟»

حملت صديقتها حقيبة مليئة بالمشتريات كانت قد وضعتها عند قدميها، وأجابت: «أعتقد ذلك».

ومن دون أن تلتفتا للحظة نحوه، غادرتا. بعد مرور دقيقة واحدة سقط ظل على جريدته، فرفع دمتريو نظره ليرى كاتانسكا يضع حقيبة من الجلد غالية الثمن على الطاولة، ويجلس على الكرسي المواجه له.

طوى دمتريو الجريدة ووضعها على حافة الطاولة، ثم فكر بعزم: لتبدأ المعركة!

* * *

قال لها، وهو يسير برفقتها إلى منزل جدتها ليلة أمس، إنه سيعمل طوال النهار في اليوم التالي، وهكذا علمت أن قدومها إلى منزله سيعيق أعماله. تابع قائلاً إنه يرغب في اصطحابها إلى العشاء في المساء.

فاجأها كلامه فرددت بفرح: «أتعني أن نخرج في موعد غرامي إلى مطعم؟»

قال وابتسامته تلمع تحت ضوء القمر: «هذا ما أفكر فيه. يمكنني أن أصطحبك إلى مكان لا يتعرف علينا فيه أي من أصدقاء جدتك».

- آه! أنا لا أهتم لهم.

هزت ناتالي رأسها وهي تشعر بالدهشة من التبدل السريع للحياة. منذ أربع وعشرين ساعة فقط كانت تحاول جاهدة أن تبتسم، والآن هي لا تستطيع أن تمسح الابتسامة عن وجهها.

-لم أظن مطلقاً أنك تفكر في أن نخرج في العلن معاً، هذا كل شيء. لكنني سعيدة جداً لأنني كنت مخطئة.

- حسنا! أخبرتني أن جدتك ذهبت إلى كابري، وأنت تعرفين القول الشائع عما يحدث عندما يغيب الهر.

- أتعني أن الفئران تسرح على هواها؟

- بالضبط. لكن ليس علينا أن نتباهى بعلاقتنا في بلدتها. سيبدو ذلك كأننا نبحث عن مشاكل أنت بغنى عنها. أنا لا أريد أن أخلق مشاكل لا داعي لها بينك وبين جدتك.

قالت: «لن تفعل ذلك. تعلمت منذ سنين عديدة كيف أتعامل مع جدتي عندما تحاول السيطرة عليّ، وهي تعلم أنني قادرة على الانتقال للعيش في فندق إن حاولت التدخل في حياتي الاجتماعية».

- حسناً!، سأمر لاصطحابك عند الساعة السابعة؟

هزت رأسها موافقة وقالت: «اضغط على جهاز الاتصال بالداخل،

وسيعمل روميرو على فتح الأبواب الكهربائية لك»

- أتعتقدين أن اصطحابك من مدخل الفيلا فكرة جيدة؟

- دمتريو! عندما أبعدتني عنك شعرت باليأس، أما وقد التقينا من جديد، فقد سئمت من المغادرة خلسة والتظاهر بعدم معرفتك، لذلك أريدك أن تأتي لاصطحابي من أمام الفيلا، إلا إذا....

توقفت عن الكلام للحظة قبل أن تتابع: «هل سنذهب بالشاحنة؟»

- وهل يسبب لك ذلك مشكلة؟

- لا! لكن إن كنت ترغب، يمكنني أن أقود أية سيارة من السيارات الأربع الموجودة في المرآب.

- لا، لا أرغب في ذلك!

قال ذلك بصوت بارد كالثلج.

سارعت ناتالي توضح له: «ما أفكر فيه هو أنك تنفق ثروة على إصلاح منزلك، ونظراً لارتفاع ثمن الوقود هذه الأيام، لا أريد أن أثقل عليك بنفقات إضافية من أجلي!»

- دعيني أقلق بنفسي على ما أستطيع تقديمه، أميرتي. أنت فكري فقط كيف ستستمتعين غداً بوقتك.

أخذت نصيحته على محمل الجد، فأمضت طيلة النهار في منتجع في بوستيانو، تهتم بجمالها. والآن، فيما عقارب الساعة تشير إلى السابعة إلا عشر دقائق، كل ما بقي لديها من عمل هو أن ترتدي فستانها القطني الرقيق وتنتعل حذاءها المرتفع الكعبين اللذين اشترتهما هذا الصباح.

رأت روميرو يفتح الباب الأمامي في الوقت الذي نزلت فيه الدرج، وأدركت ناتالي أنه تفاجأ لرؤية شاحنة تقف أمام مدخل الفيلا، ولأن مرافقها للأمسية هو دمتريو برتولوزي الرجل السيء السمعة، لكنه يملك من الحنكة ما يكفي كي لا يظهر دهشته.

ساعدها روميرو لتجلس على المقعد، واستدار ليفتح الباب دمتريو قائلاً باحترام كبير: «استمتع بأمسيتك سنيور»

www.elromancia.com

راحت الشاحنة تصدر طقطقة وهي تمر خلال الأبواب لتصل إلى الطريق العام. قالت له: «أرأيت؟ لم يكن الأمر صعباً، أليس كذلك؟»

خفف من سرعته حتى توقف تحت ظل الجدار وضمها إليه عبر المقعد بقوة، وهو يقول بخشونة: «تحدثي عن نفسك! تبدين رائعة جداً، حتى إنني عندما رأيتك، كدت أندفع لمعانقتك، ولم يمنعني من ذلك إلا خشيتي أن يسقط رئيس الخدم في منزل جدتك ميتاً من الصدمة».

اشتدت ظلمة الليل فغدا داكناً كالحبر، واختفت النجوم من السماء، وشحب لون القمر من حرارة عناقه. أخيراً عندما ابتعد عنها، كانت ناتالي ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها.

قال: «هذا يكفي الآن».

أعاد انتباهه إلى قيادة الشاحنة عبر الطريق العام، وهو في غفلة تامة عن اضطراب مشاعرها والخدر الذي أصاب كل ذرة من جسدها.

اصطحبها دمتريو إلى نابولي حيث توجها إلى مطعم صغير هو عبارة عن كهف يشرف على مياه الخليج، حيث قدم لهما الخبز الساخن الشهي المصنوع في المنزل على ألواح خشبية، أما الحساء الذي لم تتذوق ناتالي مثله في حياتها فقد قدم في أوعية من الفخار مع بقية المأكولات المحلية.

بعد تناول الطعام، رقصا على أنغام أغاني دين مارتن التي قام بعزفها على بيانو قديم بحار عجوز. شعرت ناتالي كأنها في الجنة، فالقمر يسطع فوق خليج نابولي، والشموع الرائعة الجمال تضيء الصالة، فيما دمتريو يضمها إليه وهما يرقصان. لم تشعر يوماً في حياتها بسعادة مماثلة.

سألها دمتريو وهو يمسك بيدها: «ما الذي فعلته اليوم؟»

- ذهبت إلى بوستيانو منذ الصباح الباكر، وتسوقت.

أتراها تخيلت أن التماعة من القلق ظهرت في عينيه للحظة؟

تابعت: «وماذا عنك؟ هل قمت بكل ما خططت له ليومك؟»

- أجل.

- أنت تمضي الكثير من الوقت في عملك في المنزل، لا بد أنك سعيد بأخذ

فرصة ولو لعدة ساعات.

- هذا صحيح!

وعلى الفور بدل دمتريو الموضوع، ليسألها: «متى ستعود جدتك؟»

- لم تقل لي. لماذا؟

رفع يدها ليطبع قبلة على راحتها، ويعلق: «أتساءل كم من الوقت أستطيع الاستفادة من وجودك هنا، قبل أن تأتي باحثة عني وهي تحمل بندقية في يدها».

اتسعت ابتسامتها، لأنها فعلاً ضغطت على نفسها كي لا تقول: يمكنك الاستفادة من وجودي حتى آخر حياتك، إن أردت ذلك، ولأنها شعرت بفرح لا يوصف من لمسة شفتيه على كفها.

وكأنما لاحظ دمتريو ما تشعر به، فقال: «هل نستطيع الذهاب من هنا، أميرتي؟ لنذهب إلى مكان نستطيع البقاء فيه بمفردنا؟».

قالت ناتالي وهي تضحك: «لا مانع لدي. إنها فكرة رائعة!».

www.elromancia.com

٩ - لو كنتِ رجلاً

عندما عادت فجراً إلى المنزل وجدت جدتها جالسة على رأس طاولة الطعام وحيدة، وقد ظهر الغضب بوضوح على وجهها.

- هل أستطيع أن أسألك أين كنت أم يمكنني ببساطة أن أفترض الأسوأ؟

بدت ناتالي مليئة بالنشاط والفرح، وأجابت: «يمكنك أن تفترضي ما تشائين، مادمت تعرفين أن ما يحدث معي هو الأفضل لي».

- كنت معه إذاً! وأنا كنت أعتقد أنك عدت إلى رشدك.

- هذا ما حصل معي بالضبط!

أضاءت وجهها ابتسامة كبيرة، قبل أن تتابع: «يجب أن تعلمي أنني لن أبتعد عنه مادام يريدني أن أبقى بقربه».

لمحة من الاستياء والحزن غطت ملامح وجه جدتها، وقالت: «فهمت!»

- لا أعتقد أنك فعلت.

رشفت باربرا رشفة من فنجان قهوتها، وكشرت كأنها شربت مياه آسنة.

- أرى أنك مصممة على الذهاب إلى الجحيم بقدميك، لكنني لن أتظاهر بأنني أفهم ماهو السر الذي يجعلك تتعلقين بهذا الرجل فترين أنه لا يقاوم.

- إذاً دعيني أخبرك عن ذلك بصراحة: إنه رجل نزيه، وهو لا يخاف من العمل القاسي، وأنت من بين جميع الناس يجدر بك أن تحترميه بسبب ذلك.

- احترام إيمانه بالعمل الجاد أمر هام ناتالي، لكن مرافقته واتخاذه صديقاً في الحياة الاجتماعية أمر مختلف تماماً، كما تعلمين.

ورفعت عينيها إلى الأعلى كأنها تستنجد بالعناية السماوية. قالت غير مصدقة ما سمعته: «لا أعرف مطلقاً كيف يمكنك أن تفعلي ذلك بنفسك..

ترافقين رجلاً كهذا!»

- إنه رجل رائع جداً، وقد حان الوقت ليدرك جميع من يعيشون هنا ذلك.

رفعت جدتها حاجبها باستهزاء، وعلقت: «أخشى القول إن الأمر يحتاج إلى أكثر من صداقته مع امرأة مثلك»

- لماذا؟ ما هي جريمته؟ هو لم يعتدِ على أحد. وبالنسبة لصداقتنا، أنا امرأة ناضجة، وما أفعله هو أمر خاص بي وحدي، أما في ما يتعلق به، فكل ما يريده هو إعادة منزل جدته إلى سابق عهده، ولا أدري ما الخطأ في ذلك؟

- هذا الأمر بحد ذاته ليس خاطئاً، وإن أردت الحقيقة، جميعنا سعداء لأنه يقوم بترميم ذلك المنزل المهدم. لكن لا شيء من ذلك سيغير حقيقة أنه غير مرغوب به هنا، وهو لن يصبح شخصاً مرغوباً به أبداً. إنه ببساطة، ليس مثلنا.

- حسناً! إنه من نوعي أنا، لذلك من الأفضل أن تعتادي على الأمر. هو يعرف ما يريده، ولا يخاف من السعي وراءه، كما أنه يدرك تماماً ما تفكرون به، لكنه مهتم فقط بتحقيق أهدافه، من دون الاعتماد على أحد، فالتأثير بالناس أمر خارج نطاق اهتماماته.

- مع ذلك يبدو أنه أثر بك، عزيزتي.

أجابت وقد تورد خداها: «لأنه رجل حقيقي... وبصراحة، لم أقابل الكثير من هؤلاء مؤخراً».

نظرت جدتها إليها بعينين ضيقتين، وقالت: «حسناً! إنني متأكدة من ذلك. لقد أثر بك في أسابيع قليلة أكثر مما فعل لويس مادسون في سنوات. لا أذكر أنك دافعت عنه مرة واحدة بمثل هذا التعاطف. على أي حال، فإن لويس لم يفعل شيئاً كي تضطري إلى الدفاع عنه أساساً».

قالت ناتالي متأففة: «آه، حقاً جدتي! لِمَ لاتعطين دِمتريو فرصة ؟»

- ولماذا عليّ أن أفعل ذلك؟

- لأنه لا يستحق أن يتعامل الجميع هنا معه كشخص ينبذه المجتمع فقط لأنه لا يقود سيارة خيالية أو لا ينتمي إلى عدد من النوادي المنتشرة في المنطقة.

www.elromancia.com

كل ما يحتاج الأمر هو كلمة منك لتتغير كل وجهات النظر السيئة حوله.

- أنت تعطينني الكثير من القدرة هنا، عزيزتي.

- لا، لكن الناس ينظرون إليك دائماً باحترام، وهم يتبعون خطاك حيث تسيرين.

قالت جدتها بضيق: «إلى أين تريدين الوصول ناتالي؟»

- أريد أن تقيمي حفلة عشاء، وأن تدعيه إليها.

- أن أدعوه... مع أصدقائي ومعارفي؟

قالت بسرعة: «بالطبع! وماذا تعتقدين؟ أأطلب منك أن تدعيه هو وكلبه؟».

- لن يقبل الدعوة.

- قد يفعل. لا سيما إن شجعته على ذلك. وإن فعل، فستكون تلك بداية جديدة لعهد جديد في حياته.

نظرت جدتها إليها بنظرات ملؤها الشفقة، وقالت: «هل أنت حقاً مسلوبة العقل بهذا الرجل إلى درجة تجعلك لا تلاحظين كم يبدو كلامك مستهجناً؟ إذا وافقت على دعوته إلى العشاء، سوف يكون كالسمكة التي أخرجت من الماء. كل ما ستنجحين به هو أن تسببي له الإحراج».

ثم هزت رأسها مستغربة وهي تتابع: «ناتالي، عزيزتي! يصعب علي كثيراً أن أقول لك: «لا» لكن في هذه المرحلة، أخشى أنه يجب علي الرفض».

- أنت لست عادلة، جدتي! إنه يستحق فرصة ليثبت نفسه.

- ليفعل ذلك على مائدة شخص غيري، لأن إعادة اعتباره لن تحدث على طاولتي. لن أعرض أصدقائي إلى الإحراج بقضائهم أمسية برفقة ذلك الرجل، حتى من أجلك. أنا آسفة ناتالي، لكن هذه هي كلمتي الأخيرة في هذا الموضوع.

* * *

خلال شهر كامل ظلت تلك الكلمة الأخيرة في أي موضوع هام يطرح بين ناتالي وجدتها. صحيح أنهما تمكنتا من المحافظة على علاقة حضارية بينهما،

لكن الجو العام لفيلا روزا موندا بقي بارداً.

لكن ليس هذا ما يمكن قوله عما يجري في المنزل المجاور. أحيانا، كانت ناتالي تمضي عدة أيام في منزل ديمتريو تنزع الأعشاب الضارة من أحواض الزهور، وتزرع إكليل الجبل والطرخون والحبق في الحديقة.

راحت ناتالي تعد الغداء ولو كان بسيطاً كالخبز والزيتون والجبن مع التين الطازج، فيتناولانه في الشرفة الخلفية للمنزل. كما عمدت إلى تدريب بيبو وتعليمه كيفية الامتثال للأوامر، بالإضافة إلى اعتنائها به وبتمشيط وبره.

جرت العادة أن يعد ديمتريو العشاء، حيث يمضيان معاً أجمل الأوقات، فيتبادلان العناق كحبيبين مشتاقين. أملت ناتالي أن يطلب منها الزواج به يوماً ما، وهكذا يقطفان ثمار حبهما ويصبحان زوجين أمام الله والقانون والمجتمع. لكن حتى الجنة لا تخلو من وجود أفعى، وليس هناك استثناء، فأحياناً كان ديمتريو يطلب منها الرحيل ويوصيها بألا تعود قبل أن يتصل بها، فيقول: «سوف يكون هناك الكثير من العمل القاسي هنا!» أو «وجودك يشكل عثرة في الطريق، وقد تصابين بالأذى».

حسناً! بالطبع هناك الكثير من الأعمال التي تجري هنا، إذ بدا فجأة كأنه يملك ما يكفي من المال ليحضر كل أنواع المساعدة الإضافية التي يحتاجها. جاء عمال كريهو المنظر، وبدلاً من تحسين أوضاع المنزل أضافوا المزيد من الفوضى إليه، حتى بدا أكثر سوءاً مما كان عليه. راح هؤلاء العمال السيئون يراقبونها من زوايا أعينهم ويتهامسون في ما بينهم. وعندما تسأله ناتالي عنهم يعمد إلى قطع الحديث بطريقة مفاجئة ويلوذ بالصمت.

في إحدى المرات، كان ديمتريو في الخارج يتحدث إلى العمال عن أمر ما، و رن جرس الهاتف الذي تم تزويد المنزل به مؤخراً. خشيت ناتالي أن يكون هذا اتصالاً هاماً، فذهبت لتجيب، لكن ما إن رفعت سماعة الهاتف حتى أسرع ديمتريو إلى المطبخ وخطفها من يدها.

قال بصوت كالزئير في سماعة الهاتف: «سأتصل بك بعد قليل».

وسارع إلى إنهاء الاتصال، ثم استدار نحوها، قائلاً بصوت جعل الدماء

www.elromancia.com

تجري باردة في عروقها: «لا تجيبي مطلقاً على اتصالاتي الهاتفية مرة ثانية».

تراجعت ناتالي قليلاً إلى الوراء وهي تشعر بالرعب، وقالت: «كنت فقط أحاول المساعدة، ديمتريو».

- توقفي عن المحاولة. لست بحاجة إلى مساعدتك!

قال ذلك بغضب وقفل عائداً إلى الخارج. نظرت من خلال النافذة فرأته يقطع بخطى واسعة المسافة أمام بركة السباحة، حاملاً الهاتف النقال على أذنه، وتعابير وجهه جامدة كالصخر.

طريقة معاملته لها أخافتها، وسببت لها الألم. ألا يستطيع الوثوق بها؟ ما الذي يخفيه؟ ولمَ تراها ترضى بتحمل هذه المعاملة السيئة؟ أحست بالانزعاج بسبب ضعفها تجاهه، فقامت بجمع أغراضها وغادرت المنزل، لكنها لم تكد تصل إلى منتصف المسافة التي تفصلها عن الطريق الفرعية المؤدية إلى منزل جدتها، حتى لحق بها وضمها إليه في عناق قوي مؤثر. همس: «لا تذهبي... أنا آسف! لا أملك أي حق بالتكلم معك بتلك الطريقة».

عانقته بدورها ودفنت شكوكها في مكان عميق، لكن تلك الشكوك لم تبقَ مدفونة، لأنه ظل دائماً منشغل البال، كتوماً ومتحفظاً.

في أحد الأيام، أعلن أنه سيذهب إلى نابولي لشراء بعض اللوازم المعدنية لخزائن المطبخ التي سيتم تركيبها في الأسبوع التالي. عرضت عليه ناتالي أن تذهب معه، إلا أنه طلب منها البقاء مع بيبو، ثم أضاف أنه سيحضر معه بيتزا من تلك التي تشتهر نابولي بصنعها.

وعدها قائلاً: «سنتناول العشاء بجانب البركة، وسنسبح بعد الانتهاء من تناول الطعام».

وبالفعل تميزت تلك الليلة بنوع من السحر جعلها من الأمسيات التي لا تنتسى، لكن الأمر المحزن أن ديمتريو بدا شارداً يكتنفه الغموض معظم الوقت. وعلى الرغم من براعته في لعب دور العاشق المتيم، لم يطلب منها البقاء عنده، فعاودتها الشكوك المزعجة التي عملت جاهدة طيلة الأسبوع لتتخلص منها، بصورة لا تستطيع تجاهلها. هنالك شيء يجري هنا، وهو شيء خاطئ. إنها

تشعر بذلك في أعماق أعماقها...

في صباح اليوم التالي، ولأول مرة منذ أسابيع، انضمت ناتالي إلى جدتها لتناول الفطور. قالت باربرا: «من الرائع أن أراك تجلسين إلى الطاولة معي من جديد».

الاهتمام والحنان الواضحان في كلام جدتها جعل الدموع تنهمر من عيني ناتالي.

أساءت جدتها فهم سبب انهمار دموعها، فقالت: «آه، عزيزتي! أنا أيضاً شعرت بالحزن لذلك. أنا أشعر بالانزعاج عندما تصل الأمور بيننا إلى هذا الحد».

قالت ناتالي وهي تمسح دموعها بمنديل الكتان: «أنا أيضاً».

- حسناً! على الأقل يبدو أن الأمور تتحسن في المنزل المجاور. أرى أن السيد برتولوزي يرمم الجدار الذي يحيط بالفيلا من جهة المدخل الأمامي.

جاهدت ناتالي بقوة لتبقي تحت السيطرة، وقالت: «إنني سعيدة أيضاً لأن المطبخ الجديد سيصل في الأسبوع القادم. فالمطبخ الحالي مخيف».

علقت جدتها بلطف: «لا تبدين سعيدة، ناتالي. الحزن باد على وجهك عزيزتي. هل الأمور على غير مايرام بينكما؟»

لم يكن هناك أي لمحة من الانتقاد أو الشماتة في السؤال، وفجأة أرادت ناتالي أن تعترف بمكنونات صدرها للمرأة الوحيدة التي تقف دائماً بجانبها، مهما صعبت المواقف بينهما.

- في معظم الأوقات نحن متفاهمان. لكنني أشعر أنني لا أستطيع فهمه دائماً كما أرغب.

حدقت جدتها بها للحظة. فتحت فمها لتتكلم، ثم بدت كأنها تفكر بالأمر، وأغلقت فمها من جديد.

- إن كان هناك ما تفكرين به جدتي، من الأفضل أن تتحدثي بالأمر.

رفعت باربرا كتفيها بعدم مبالاة، وعلقت: «ربما المشكلة الحقيقية لا تتعلق بفهمك له، بل بحقيقة أنك لا تعرفينه جيداً كما تعتقدين».

www.elromancia.com

- لا تتكلمي بغموض جدتي، فأنا لست مستعدة لحل الألغاز. فقط أخبريني ما الذي تريدين قوله!

- حسناً! أخبرتني ماريانا سورنتينو أنها رأته البارحة.

- هذا يفاجئني، كان عليه الذهاب إلى نابولي.

- لا! لم تشاهده في نابولي عزيزتي، بل في بوستيانو. رأته جلساً في مقهى على الطريق في وضح النهار، برفقة شخص مقيت ذي سمعة سيئة. بالطبع، أنت لا تعرفين ذلك الرجل، ويمكنني أن أؤكد لك أنه شخص لا ترغبين مطلقاً في التعرف إليه.

- ألأنك تصنفينه في قائمة الأشخاص الذين يشبهون دمتريو؟

- يا إلهي! لا أتمنى ذلك مطلقاً! هذا الرجل سيئ تماماً. إنه بصراحة شخص حقير. في الواقع، أذكر أنني ذكرته لك عندما سألتني كيف تمكنت عائلة برتولوزي من الانتقال إلى هذه المنطقة.

غاص قلب ناتالي، وأرادت أن تضع يديها على أذنيها رافضة أن تسمع أي شيء آخر، لكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك الآن.

قالت: «ما اسم هذا الرجل؟»

- غيدو كاتانسكا. لا أعتقد أن اسمه سيعني لك شيئاً.

غاب اللون من وجهها، وشعرت بدوار في رأسها حتى كادت تتقيأ الطعام الذي تناولته. سمعت صوت جدتها يصل إليها من بعيد: «ناتالي... هل أنت بخير؟»

همست: «لا!».

أسرعت بالوقوف وهي تقول: «يبدو أنني تناولت شيئاً لا تتقبله معدتي».

وصلت إلى غرفة الحمام في الوقت المناسب. إن مجرد ذكر اسم ذلك الرجل الرهيب جعل معدتها تنقلب رأساً على عقب. سرت قشعريرة من الخوف في أوصالها لتذكرها صورة وجهه المقيت. لم يبق أمامها أي خيار بالطبع، إلا مواجهة دمتريو. مع أنه طلب منها البقاء في منزلها هذا اليوم، لكن ما إن تمكنت من التقاط أنفاسها، حتى سارت مباشرة إلى منزله.

كاد العمل ينتهي في السور العالي الذي يحيط بالفيلا، فقد رأت ناتالي رجلين يعملان على تركيب أبواب حديدية كبيرة عند نهاية الطريق الخاص. من الآن فصاعداً لن يحتاج دمتريو إلى إصدار الأوامر اليها عندما يرغب بإبعادها. كل ما عليه القيام به هو أقفال الأبواب. وجدته في قاعة الاستقبال يتحدث إلى أحد العمال الذين يعملون بالطلاء.

قبل أن تهجرها شجاعتها، قاطعتهما قائلة بصوت حاد: «أحتاج إلى التحدث إليك، دمتريو، الآن وعلى الفور».

فاجأته نبرتها تلك، فاتسعت نظرة عينيه، وقال: «حسناً! اعطيني دقيقة واحدة، وسأقابلك على الشرفة».

بدا الهواء منعشاً في الظل، فالطقس معتدل ومفعم بالسكينة. هكذا يبدو الأمر لأي شخص غريب، لكنه لم يكن كذلك بالنسبة لناتالي.

من ورائها، فتحت الأبواب وخرج دمتريو منها. سار نحوها، ولامست يده بلطف مؤخرة رأسها، ثم أدارها بيده الأخرى.

- تبدين منزعجة، أميرتي. ما الأمر؟

ابتعدت ناتالي عنه، ثم استدارت ببطء لتواجهه، فيما ساورها شعور بالخوف مما ستسمعه كرد على سؤالها.

- إلى أين ذهبت البارحة بالتحديد؟ ومن قابلت؟

- ما الذي تقصدينه بسؤالك هذا؟ تعلمين أنني ذهبت إلى نابولي لشراء معدات حديدية للمطبخ الجديد، وقد رأيتها بنفسك عندما أحضرتها إلى المنزل.

- إلى أين ذهبت أيضاً، بالإضافة إلى نابولي؟

تجهم وجهه، وعلته تلك التعابير الغامضة التي أصبحت تخشاها.

- أما من أسباب تخفيفية لجريمتي، ناتالي؟

- لا أعتبر هذا جواباً عن سؤالي.

- وأنا لا أعتبر أن لديك الحق في استجوابي كما لو أنك أمي.

نظرت إلى عينيه مباشرة، وسألته: «ماذا أعني لك بالتحديد، دمتريو؟».

www.elromancia.com

شعر دمتريو بالضيق، فأطلق زفرة قوية، وصفع جبهته بيده غاضباً.

- حباً بالله، ياامرأة! أنا غارق في المشاكل حتى عنقي. ألا يستطيع هذا النقاش الانتظار ليوم آخر؟

قالت: «لا! أريد أن أعرف الآن، قبل أن تتطور الأمور بيننا إلى أكثر من ذلك».

قال بصوت كالانفجار: «الأمور ؟ أية أمور؟»

صرخت: «نحن، دمتريو! من نحن؟ وماذا نعني لبعضنا البعض؟».

- الأمر واضح جداً.

- هذا ما ظننته أيضاً، إلى أن أعطيتني أسباباً كي أشك بك.

- وكيف تراني فعلت ذلك بالتحديد؟

قالت بوضوح: «لقد كذبت علي أكثر من مرة، على ما أعتقد».

اكتسى وجه دمتريو بلون أحمر داكن ولمعت عيناه كالنار، ثم قال: «لو كنت رجلاً، لواجهتك بلكمة على وجهك بسبب كلامك هذا».

- وأنا أعطي كل ما لدي فقط لأسمعك تقول إنني مخطئة.

قال بهدوء: «ليس علي أن أقول أي شيء. من المفترض أن تعرفيني بما فيه الكفاية حتى تثقي بي. لماذا تجدين الأمر صعباً جداً، ناتالي؟ ألأنني من عائلة برتولوزي؟»

قالت بصوت ضعيف وحزين: «لا! لأنني أحبك، وأريد أن أؤمن بك، بينما أنت تجعل ذلك مستحيلاً. ولأن هناك من شاهدك تشرب القهوة في بوستيانو، في الوقت الذي ظننت أنا أنك في نابولي تشتري حاجاتك».

ظهر الضيق على وجهه بشكل كبير، وسألها: «من الذي شاهدني؟»

- لا أهمية لذلك. يكفي أنني سمعت عن الأمر من شخص سواك.

- ومنذ متى أصبح توقف رجل لشرب القهوة في مكان ما وهو في طريقه إلى مكان آخر أمراً بالغ الأهمية ؟

- يصبح الأمر ذا أهمية إذا ما اختار أن يفعل ذلك بصحبة رجل يدعى كاتانسكا.

شحب وجه دمتريو على الرغم من لون بشرته السمراء، وأخفض رموشه حتى كاد يغمض عينيه

هز رأسه قائلاً: «آه، أميرتي!»

- هل ما سمعته صحيح؟

قال وهو ينظر إلى عينيها: «نعم.. صحيح!».

- قلت لي إنك لا تريد أية علاقة مع ذلك الرجل، فلماذا عدت وجلست لتناول القهوة معه؟ أهذه كذبة إضافية على القائمة، دمتريو؟

أطلق شتيمة بصوت منخفض، وحدق إليها بغضب، ثم تحرك فجأة وتقدم نحوها وهو يرفع يده لينزلها على رأسها. قبل أن يتسنى لها الوقت لتتجنبه، وفيما هو يفعل ذلك، قال بصوت غاضب: «ابقي هادئة... عنكبوت!»

لأول مرة منذ أن التقيا، شعرت ناتالي فعلاً بالخوف منه، فابتعدت عنه وهي ترتجف. من المؤسف أنها لم تستطع إخفاء خوفها الذي بدا جلياً، حتى بعد أن أدركت ما يحصل. قال بصوت كالرعد: «ما بك، بحق السماء؟».

توقف ويده مازالت معلقة في الهواء قبل أن يتابع: «هل ظننتِ أنني سأضربك؟»

همست: «لا»

شعرت بقلبها بضرب بقوة بين ضلوعها، ، فتابعت تقول: «لا، لم أعتقد ذلك.. حقاً»

ترك يده تسقط بإعياء إلى جنبه، وهز رأسه من جديد. قال بصوت ضعيف وهو لا يصدق ما يراه: «بلى، هذا ما ظننته. من الذي يكذب الآن، ناتالي؟»

آلمتها النظرة التي ارتسمت في عينيه. بدا لها أن الألم مطبوع بوضوح على معالم وجهه كلها، شعره الأسود الداكن، عيناه اللتان تخترقان روحها مباشرة، فمه المنحوت ببراعة.. أدركت في تلك اللحظة أنها تحبه، وأنها ترغب في ضمه بين ذراعيها كي تمسح ذلك العذاب الذي سببته له. غمرها إحساس بالخسارة فتنهدت قائلة: «أنا آسفة إن كنت..».

- وفري على نفسك الاعتذار.

تابع ديمتريو بصوت قاس كالفولاذ: «سبق لي أن ضربت رجالاً، وسأفعل ذلك من جديد من دون أي تردد إن كنت بذلك أدافع عن مخلوق ضعيف. لكنني لم أضرب امرأة قط في حياتي، ولا أريد أن أبدأ الآن بذلك. لماذا تجدين صعوبة في تصديق ذلك، ناتالي؟ لماذا تفترضين الأسوأ بي؟ لِمَ لا تثقين بأنني أستطيع القيام بما هو أفضل؟».

- أنا أثق بك.

لكن صوتها المرتجف خذلها. سألها بقسوة: «إلى أية درجة؟»

- بمقدار ثقتك بي..

انهمرت دموعها على وجهها وهي تتابع: «يبدو أن هذه الثقة ليست كافية. أليس كذلك؟».

- ذلك اللعين!

بدا كأنه يحاول السيطرة على غضبه قبل أن يسيطر عليه. راح يذرع الشرفة بسرعة ذهاباً وإياباً لعدة مرات قبل أن يواجهها من جديد. بدا أقل توتراً وهو يقول: «هذا جنون، وأنت تدركين ذلك. أليس كذلك؟ أنا آسف لأنك علمت بشأن كاتانسكا، لكن هناك تفسير منطقي لوجودي معه، وكنت لأخبرك عنه بنفسي غير أنه لا يستحق إضاعة الوقت لأجله. لقد توقف أمام طاولتي ليكرر عرضه بشراء المنزل، وأنا رفضت طلبه مرة ثانية. هذا كل شيء. لكن إن كان إخفاء هذا الأمر عنك جعلك تنقلبين ضدي إلى درجة تدفعك إلى إنهاء علاقتنا، أخبريني بذلك فقط، وسأبقى بعيداً عن حياتك».

قالت: «لا أريد أن ننهي علاقتنا».

لمس وجهها بيديه الاثنتين بنعومة فائقة، ثم قال برقة: «أنا أيضاً، أنا أميرتي.. لا أريد ذلك».

فتحت الأبواب من جديد، وعلا صوت رجل يرتدي بزة من الكتان برتقالية اللون: «نحتاج إليك برتولوزي. أنت تؤخرنا عن إتمام عملنا».

تمتم وهو يحدق إليها بعينيه الزرقاوين الرائعتين: «عليّ أن أعود إلى العمل، وانت تبدين مرهقة. اذهبي إلى منزلك واستريحي. سأنهي عملي باكراً، وأمر

لاصطحابك عند الساعة الثانية. سنذهب إلى بوستيانو، فنستقل المركب إلى كابري لقضاء فترة بعد الظهر هناك، وعندما نعود إلى البر سنتناول العشاء في رافيلو».

نعومة صوته ونظرات عينيه أزالت كل تحفظاتها، وأعطتها أملاً جديداً بأن علاقتهما قد يكتب لها النجاح.

- يبدو هذا رائعاً!

- إذاً، اتفقنا! سأراك عند الساعة الثانية.

راقبها وهي تسير مبتعدة، فيما راحت مشاعره تتصارع كأنها في زوبعة. يحق لها أن تشك به، فمنذ أن اتفق مع روسو ومساعديه، بات مضطراً للكذب عليها من وقت إلى آخر. إلى أن ينتهي هذا العمل المزعج مع كاتانسكا، لا خيار لديه إلا الاستمرار في القيام بذلك. ليس فقط لأنه أقسم على السرية والكتمان، بل لأنه قد يقدم على أي عمل ليحميها من أي لقاء قد يحدث بينها وبين ذلك الشخص الكريه كاتانسكا.

مجرد ذكر الرجل أرسل قشعريرة في بدنه. فهذا ما يحدث له كلما تذكر ذلك اللقاء بينهما في المقهى في الساحة العامة.

- تبدو حزيناً جداً، صديقي الشاب.

قال له كاتانسكا ذلك مظهراً تعاطفاً كاذباً، يمكن لأي أعمى أن يكتشف زيفه ولو على بعد ميل.

قام ديمتريو بالدور الذي أسند إليه، فتعمد أن يبدو في وضع يائس لاخلاص له منه.

- هذا ماكنت ستبدو عليه أيضاً لو أنك أنفقت أموالك حتى آخر يورو، ولم تجد مصرفاً يقرضك المال ولو لفترة وجيزة.

تنهد كاتانسكا وقال: «إذاً المال هو المشكلة. أليس كذلك؟».

وضع يده الكبيرة على ذراع ديمتريو، ما اضطر هذا الأخير إلى بذل جهد كي لا يدفعها جانباً.

- أليست هذه مشكلة معظم الناس؟ ماذا لو قلت لك إنني أستطيع

www.elromancia.com

مساعدتك، تماماً كما ساعدت غيرك ممن هم في مثل وضعك؟ ما هو المبلغ الذي نتحدث عنه؟

احتاج دمتريو إلى بعض الوقت كي يجيب، إذ فكر أنه يجب أن يبدو ذليلاً، خائفاً ومتواضعاً.

- الآلاف، سنيور. كنت على حق في ما قلته سابقاً. لقد كلفني الأمر أكثر بكثير مما توقعت، ومازلت أحتاج إلى الكثير لأتمكن من ترميم الفيلا.

- الآلاف ليست مشكلة بالنسبة لي، بني. من جهة أخرى أنا رجل منطقي، وأنا متأكد من أننا نستطيع الوصول إلى اتفاق. كيف يبدو لك ذلك؟

تابع كاتانسكا حديثه شارحاً أن المبلغ سيتضاعف بعد مرور ثلاثين يوماً، وسيصبح ثلاثة أضعاف بعد مرور ستين يوماً، وأدرك دمتريو أن هذا ابتزاز واضح ووقح.

أنهى الرجل حديثه قائلاً: «وبالطبع، هناك مسألة صغيرة تتعلق بالضمان. أنت تفهم ذلك بالطبع لأنك بحاجة إلى رهن شيء ما لدي كضمانة للمبلغ الذي سأقرضك إياه»

- ما رأيك بالشاحنة؟

- مارأيك بالفيلا؟

أيها المرابي! كم من المساكين عملت على ابتزازهم، وتركتهم بدون أي فلس؟ وكم من الأشخاص دفعتهم إلى الانتحار؟

- لا أستطيع المخاطرة بفقدان الفيلا.

أخبره كاتانسكا: «سبق لك» أن فعلت ذلك، دمتريو. ما الذي سيحدث عندما يبدأ الدائنون بملاحقتك؟».

كاد دمتريو يصاب بالاختناق بسبب المجهود الذي يبذله. بدا حزيناً جداً وهو يجيب: «لديك وجهة نظر صحيحة».

ثم تابع في سره: ليتني أستطيع الامساك بآلة حادة بما في الكفاية، لأغرزها مباشرة في قلبك الجشع.

- لا تدع الحزن يسيطر عليك.

لوح كاتانسكا إلى النادل ليلفت انتباهه، وطلب فنجانين من القهوة، ثم تابع محدثاً دمتريو: «إنها ليست نهاية العالم. اسمع يا صديقي! سأفعل ما هو أكثر من إقراضك المال، سأعرفك على أشخاص يقدمون لك المعدات والعمال أيضاً، وسيتم الأمر على خير ما يرام في النهاية..».

بالطبع! سيتم ذلك من أجل مصلحتك. بعد هذه المحادثة غدا دمتريو أكثر تصميماً على تحطيم ذلك اللعين من خلال لعبته نفسها. وقع الاتفاق معه، ذلك الاتفاق الذي حدث أن كاتانسكا يحمله في حقيبته.

قال: «لو لم أكن أعرفك جيداً، لاعتقدت أنك أتيت إلى هنا مستعداً للقيام بذلك».

ودفع الورقة باتجاهه عبر الطاولة.

- أنا دائماً مستعد لتقديم خدماتي عندما يحتاج أي شخص إلى المساعدة.

ابتسم كاتانسكا بفخر واعتزاز قبل أن يتابع: «سوف أتصل بك كل ثلاثة أو أربعة أيام، لأرى كيف تجرى الأمور معك. فأن أحب أن ألاحق مشاريعي».

وهكذا قام بالاتصال به عدة مرات منذ ذلك الوقت، لينظم لقاءات وجهاً لوجه مع دمتريو: لقاءات كان هذا الأخير يرغب كثيراً في تجنبها، لكن عمله يقضي بالتقاط أية معلومات يمكنه الحصول عليها وتمريرها إلى روسو ومساعديه. حتى الآن لم يعرف دمتريو إن كان ما قدمه لهم مفيداً أم لا، وهو لا يهتم لذلك. جل ما يريده هو الانتهاء من ذلك العمل، وهو يبذل قصارى جهده للوصول إلى ذلك.

ولكي يستطيع الاستمرار، حرص على إبقاء يومين في الأسبوع بدون عمل، كي يتمكن من التخلص من البضاعة التي يرسلها إليه كاتانسكا، ويستبدلها بتلك التي يحتفظ بها في المرآب. في تلك الأيام بالتحديد، كان يجد عذراً لناتالي لتبقى بعيدة، لأنه لم يجد طريقة لتفسير ذلك التصرف غير العقلاني من قبله. لكن ناقوس الخطر بدأ يقرع في حياته مؤخراً، وبات يشعر كأنه يرقص فوق حافة حادة؛ تلك اللقاءات المشبوهة، أولئك الأشخاص الأشرار الذين

www.elromancia.com

يروحون ويجيئون على أرضه، وقذارة هذه العملية برمتها، حيث يقوم بالتجسس وممارسة أعمال أشبه بأعمال جده... إن الأمور تزداد صعوبة، لأنه لم يعد قادراً على إخفاء استياءه ونفوره.

يدرك ديمتريو أن ما يقوم به هو أمر خطر، فعندما ينظر في عيني كاتانسكا الخبيثتين يجمد الدم في عروقه للحظة. الرجل ليس أحمق، ولا بد أنه سيصبح عدواً شرساً جداً إن لم تنجح الخطة. أما الوجه الإيجابي للمسألة فهو أنه لم تبق سوى بضعة أيام قبل أن ينتهي دوره في الخطة.

فتحت الأبواب الفرنسية من جديد، وسمع الصوت الخشن نفسه يقول: «هاي برتولوزي! هل قررت أن تخبرنا ماذا تريدنا أن نفعل هنا، أم تريدنا أن نحزم أغراضنا ونرحل؟»

شعر أن قابليته للجدال قد استنفدت فجأة فقال: «هيا.. ارحل بسرعة! خذ فريق عملك معك، ولا تزعج نفسك بالعودة إلى هنا ثانية».

١٠ - هدية وذكرى!

الفترة التي أمضياها في كابري بعد ظهر ذلك اليوم شكلت نقطة تحول في علاقتهما. شعرت ناتالي بالفرح لأنها تحلت بالشجاعة بما يكفي لتواجهه.

قال لها: «سأقدم على إجراء بعض التغييرات. أدركت أنني عملت كثيراً بالترميم بمفردي، لذا سأحضر أشخاصاً أكثر كفاءة لمساعدتي على إنهاء العمل. سأسلم الأعمال إلى شركة من خارج البلدة ذات شهرة كبيرة، في مثل هذه الأعمال. وقبل أن تسألي، لدي بعض المدخرات التي أستطيع استعمالها لتغطية كافة المصاريف».

بعد مرور عدة أيام، وصلت إلى الطريق المؤدي إلى بيته شاحنة وعربتا نقل كبيرتان، جميعها مطلية بلون أخضر معدني، وكتب على أبوابها بلون ذهبي «إيمرنزا للبناء». بدا واضحاً أن فريق العمل الذي وصل معها صاحب مهارة وخبرة في هذا المجال. على الفور، تخلص ديمتريو من التوتر الحاد الذي كان يسيطر على طباعه، ومن نوبات الغضب المفاجئ، وعاد من جديد ذلك الرجل اللطيف الهادئ الذي أغرمت به.

طلب منها أن تبقى في منزل جدتها أثناء قيام فريق العمل بأعمال الترميم والتصليحات المطلوبة. ومع أنها تفهم أن وجودها قد يعيق تقدم العمل، ألا أنها تمنت لو انه على الأقل يسمح لها بالقدوم لزيارة بيبو بين فترة وأخرى. لكن ديمتريو ظل على موقفه الصارم، فقال لها: «إن نظام الشركة يقضي بمنع تواجد النساء في الأماكن التي تحتاج إلى اعتمار القبعات الفولاذية».

وأضاف قائلاً: «وفي هذه الأثناء، ما من مكان واحد في المنزل أو في الحديقة ليس بحاجة إلى اعتمار قبعات فولاذية للعمل فيه».

www.elromancia.com

في المقابل، كان يشجعها على قضاء الكثير من الأمسيات معه. في تلك المناسبات، كان يحيطها بحنانه وعاطفته واهتمامه الشديد، فيقول لها إنها جميلة وإنه يشتاق إليها ويفتقدها عندما تكون بعيدة عنه. لكنه لم يقل لها مرة واحدة إنه يحبها، ولم يذكر ولو تلميحاً أي شيء يتعلق بالمستقبل بينهما، ولم يتلفظ بأي وعد، ما جعلها تحتفظ بذكرياتها معه كأنها حبات من اللؤلؤ تجمعها معاً في حبل هش جداً.

لاحظت باربرا أن الأمور ليست على ما يرام في حياة ناتالي، وشعرت بالقلق عليها. لم يكن من الصعب إدراك ذلك فهي تحوم حولها باستمرار. ناتالي تعرف أن جدتها ليست من ذلك النوع الذي يتوانى عن اتخاذ قرار ما للتخلص من قلقه وبما أنها تدرك ذلك جيداً، لم تتفاجأ عندما علمت أن جدتها باشرت بالعمل.

قال لها ديمتريو في إحدى الأمسيات، وهو يقدم لها مغلفاً أنيقاً: «وجدت هذا في صندوق بريدي هذا الصباح».

على الفور تعرفت عل الكتابة المطبوعة في أعلى الجهة اليسرى منه، وعلى خط اليد الذي يظهر بوضوح في وسطه، فشعرت بالخوف يسيطر عليها.

- ما الذي يحتوي عليه هذا المغلف؟

- دعوة لتناول العشاء في منزل جدتك يوم السبت القادم. ماهو سبب هذه الدعوة برأيك؟

تمنت أن تتمكن من إخفاء خيبة أملها وهي تحاول إيجاد تفسير مقبول للدعوة: «حسناً! الدعوة واضحة جداً. إنها تريدك أن تأتي إلى العشاء».

- هل عرفت بأمر هذه الدعوة من قبل؟

- بطريقة ما. تحدثنا بالأمر منذ أسابيع، لكننا هذه الأيام لا نلتقي كثيراً، ولم يتم طرح الموضوع ثانية، لذا اعتقدت أنها نسيته.

ضرب المغلف برفق على راحة يده، وقال: «أتساءل لماذا أعادت الاهتمام بالأمر؟»

ارتجلت ناتالي رداً سريعاً: «أعتقد أنها ترى أن الوقت حان لتقابل

جيرانك».

- تأخر الوقت على هذا اللقاء. أليس كذلك؟ الجيران موجودون هنا منذ النهار الأول لعودتي، لكن هذه هي المرة الأولى التي يشعر أحدهم بالرغبة في إقامة حفلة للترحيب بي.

- حسناً! إنها أكثر من مجرد جارة لك، إنها جدتي، وهي تعلم أننا..

توقفت عن الكلام فجأة. ماذا عليها أن تقول؟ أصديقان أم حبيبان..؟ ثم عادت فتابعت: «... نتقابل بصورة دائمة. ربما تقصد من وراء ذلك إظهار موافقتها أمام الجميع».

ضحك ديمتريو بصوت عالٍ، وقال: «عزيزتي، أقدر كثيراً إيمانك بمقاصد الناس الخيرية، لكنني أراهن مقابل مبلغ كبير من المال أن جدتك تتمنى لو أنني أختفي عن سطح الكرة الأرضية. بصراحة، من الصعب أن ألومها، فلو أن ابنتي تعبث مع رجل مثلي، كنت لأطارده ببندقية».

حسناً! هذا بحد ذاته يشكل إجابة واضحة عن سؤالها. إنهما ليسا صديقين أو حبيبين. إنهما ببساطة «يعبثان معاً!»

- إن كان الحضور يزعجك، يمكنك أن ترسل اعتذاراً.

رماها بنظرة متحفظة مصحوبة بابتسامة صغيرة، وقال: «وأظهر بأنني جبان، خائف من مواجهتها؟ لا مجال مطلقاً لذلك! سأكون هناك، وأعتقد أنك ستكونين هناك أنت أيضاً».

قالت: «وجودي أمر طبيعي».

مع ذلك لم يكن هناك أي شيء طبيعي في التبدل المفاجئ للأحداث

* * *

ما إن حلّت ليلة السبت حتى أصبحت ناتالي متوترة، كما لو أنها كتلة من الأعصاب المتقدة. والآن، هاهي تشعر بألم في معدتها، فمع مور الساعات أدركت أكثر فأكثر مغزى تلك الدعوة، وأصبحت أكثر اقتناعاً أن أهداف جدتها ليست بريئة مطلقاً.

لم تعترف باربرا بذلك، بل قالت: «لا أعلم لماذا تتخذين هذا الموقف.

www.elromancia.com

أنت من طرح الموضوع في بداية الأمر».

- وأنت رفضت حتى التحدث بالأمر.

- ألا يسمح لي بتبديل رأيي ؟ يمكنني أن أرى بوضوح كم أنت متعلقة بهذا الرجل، لذلك اعتقدت أنك ستسرين بهذه الدعوة.

- ليس عندما تقدمين عليها من وراء ظهري. جدتي، كان عليك أن تناقشي الأمر معي قبل أن تباشري بإرسال الدعوات.

- أردت أن أفاجئك، عزيزتي، ويؤسفني أن الأمر ارتد عليك بالسوء، لكن ليس هناك ما أستطيع القيام به الآن. كل من أرسلت لهم الدعوات قبلوها، بمن فيهم صديقك السيد برتولوزي، لذلك أخشى القول إن عليك أن تتغلبي على مخاوفك وتتخذي قرارك بالاستمتاع بالسهرة.

الاستمتاع بالسهرة هو أمر شبه مستحيل! وقفت ناتالي قرب الأبواب المفتوحة على الشرفة لتتمكن من النظر بوضوح إلى داخل القاعة، وضعت ابتسامة جديدة على وجهها الذي أصبح يؤلمها بسبب محاولتها بأن تبدو سعيدة ومرتاحة. حاولت قدر استطاعتها أن تتجاوب مع الأحاديث الدائرة حولها، فيما أبقت عينيها طيلة الوقت على المدخل خلف قاعة الاستقبال. لقد وصل جميع المدعوين ما عدا دمتريو الذي لم يظهر له أي أثر بعد. تمنى جزء منها أن يبدل رأيه فيقرر البقاء في منزله. أرسل دمتريو باقة من الزهور رائعة الجمال إلى جدتها، في وقت سابق من هذا اليوم. واعترفت ناتالي أنها لفتة مميزة من رجل يملك ما يكفي من اللباقة الاجتماعية. ازداد توترها مع مرور كل لحظة، فراحت تختلس النظر بين الفينة والأخرى إلى الساعة المطلية بالذهب الموضوعة فوق رف الموقد. في النهار أمضت الساعات وهي تحضر نفسها. ترددت في اختيار ما بين فستان مميز لأشهر المصممين وثوب أكثر بساطة ليتلاءم مع ما سوف يرتديه دمتريو. فمن المحتمل أنه لم يدرك أنها سهرة بحاجة إلى بذلة رسمية وربطة عنق سوداء، أو أنه لا يملك بذلة رسمية. في النهاية، قررت أن تبدو بكامل أناقتها من أجله، فاختارت فستاناً من تصميم أحد أشهر مصممي الأزياء، ذا لون أزرق يتدرج عند الأطراف كلون الطاووس، أما صدره العالي

فلا يمكن مقارنته بأي ثوب آخر. عقدت شعرها كالتاج في أعلى رأسها، ووضعت طبقة من ظلال العيون، ومررت فرشاة الكحل فوق جفنيها ثم تعطرت.

أخيراً ظهر دمتريو. لو أن هناك ذرة من العدل في هذا العالم، لمرّ وصوله من دون أن يلاحظه أحد وانخرط الرجل بين الحضور بدون أي تعليق، لكن هذا لم يحدث. ففي اللحظة التي فتح فيها روميرو الباب الرئيسي وأعلن حضوره، انطلق تيار كهربائي غير منظور في أجواء الغرفة.

توقف الخدم عن الحركة، بمن فيهم أولئك الذين تم استئجارهم للحفلة، وغاص ضجيج الكلام الدائر في صمت مطبق. ونسي الجميع الأكواب في أيديهم، وحدقوا به في ذهول واستهزاء.

بدا كأنما مخلوق من كوكب آخر قد هبط في وسط القاعة، أما ما دعا الجميع إلى رفع حواجبهم استهجاناً، فليس عدم ارتدائه بذلة رسمية تقليدية في الحفلة، بل الثياب التي اختارها لهذه المناسبة عوضاً عن البذلة التقليدية. اختار دمتريو ربطة عنق مخططة سوداء اللون مع بذلة سوداء مقلمة أيضاً وقميصاً ذات لون غامق كلون الفحم. بدا كأنه قطعة واحدة من رأسه حتى أخمص قدميه المغلفين بحذاء أسود لماع. اختياره لهذه الثياب ذات اللون الواحد يظهر بوضوح مدى جرأته وثقته بنفسه.

علمت ناتالي ذلك، حتى قبل أن تتمتم امرأة قريبة منها محدثة زوجها: «يا إلهي! لقد انضمت المافيا إلى الحفلة! ما الذي أصاب عقل باربرا حتى تدعوه؟»

انقبض قلب ناتالي، وشعرت بألم شديد. أرادت أن تبعده عن خط النار، وأن تتحدى أي شخص يتوجه إليه بكلمة سيئة كما أرادت أن توبخه على عدم إظهاره القليل من المنطق بتصرفه. والأهم من هذا كله، أرادت أن تعاتب جدتها وتلومها لأنها تعمدت أن تذله وتحرجها.

مهما يكن الأمر، فات الأوان الآن على القيام بأي شيء. لقد ارتكبت خطأ بتركها الأمر يجري على هذا النحو. الآن أصبح الوقت متأخراً جداً، وهي لا تستطيع القيام بأي شيء سوى البقاء ثابتة في مكانها، ترنو إليه بعينيها

كي يسامحها لأنها لم تفطن من قبل إلى أنه يسير إلى فخ نصب له.

أمام دهشة الجميع تقدم دمتريو دون أن يبدو عليه أي إرتباك أو انزعاج لأنه وجد نفسه عرضة لنظراتهم الفاحصة وانتقاداتهم القاسية. جال بنظره عبر الغرفة الواسعة، وأحنى رأسه قليلاً لجدتها، وهي الشخص الوحيد الذي اقترب منه. بدا له بوضوح أنها مسيطرة على الوضع بإحكام. أحنت رأسها قليلاً، وشاب حركاتها الاشمئزاز وهي تقول: «حسناً! سيد برتولوزي... ها قد أتيت أخيراً! بدأت أظن أنك لن تحضر».

استجابته فاجأتها تماماً، وظهر ذلك على ملامح وجهها. توقعت أن يمسك يدها ويهزها قليلاً، إلا أن دمتريو رفع ظاهر يدها إلى شفتيه، وطبع قبلة قصيرة عليها، ثم همس بصوته المثير كما يفعل دائماً: «ما كنت لأحلم بالانضمام إلى هذه الحفلة المميزة، سنيورا، ويسعدني جداً وجودي هنا».

ثم نظر مباشرة إلى عينيها، وغمزها. كأنه أراد أن يقول لها: نحن نعلم أن كلينا نكذب، لكن إذا كانت هذه رغبتك في اللعب، فإن الأمر يناسبني.

ظهور التوتر على ملامح جدتها هو أمر يستحق التوقف عنده. لم ترَ ناتالي يوماً جدتها محبطة كما رأتها في تلك اللحظة. ردّت قائلة: «لنتقدم لك شراباً ما، بعدئذ سأعرفك على الجميع».

أجاب دمتريو والمرح بادٍ في صوته: «يبدو الشراب فكرة جيدة، لكنني أشك أن يكون هناك حاجة لتقديمي لأي كان. فأنا متأكد أن جميع ضيوفك يعرفون من أكون».

شعرت ناتالي بالخوف من أن تختنق جدتها بسبب ما سمعته، لكن باربرا أفاقت بسرعة من ذهولها، وقالت معترضة: «لكنك لا تعرفهم».

هذه المرة، منحها إحدى أجمل ابتساماته، وعلق: «أنا أعرف حفيدتك، وهذا كاف على ما أظن».

- هذا صحيح.

رمقته ملياً بنظراتها التي تقطع كالسكين، وتابعت: «أصبحتما مقربين جداً، كما يبدو».

وافق من دون أن يرمش له جفن: «جداً... كما يتقرب الجيران عادة من بعضهم البعض».

تشابكت نظراتهما كأنهما في معركة. لكن كما يحصل لناتالي تماماً حين لا تستطيع الصمود أمام تحديق عينيه الزرقاوين الثاقبتين من دون أن تفقد تماسكها، هذا ما حصل لجدتها أيضاً.

- حسناً، إذاً!

تابعت بصوت كالأزيز، وهي تبتعد عن خط النار قبل أن تتمزق كرامتها إلى أشلاء، وأشارت نحو ناتالي: «سأتركك بين يديها، وأتمنى أن تنجح حيث فشلت، وتتمكن من إقناعك بتوسيع دائرة معارفك».

أخيراً وبعد أن تحررت من شرنقة الجمود التي لفت الغرفة، انضمت ناتالي إليهما، وتمتمت: «مرحباً!»

أدركت أن الأنظار تحولت إليها. لم تعرف إن كان عليها أن تبتسم من جديد، أم تقع بين ذراعيه وتنفجر بالدموع ببساطة..

أنقذها دمتريو من ارتباكها، حين ضغط بيديه على يديها، ثم تراجع إلى الوراء قليلاً وهو يقول: «لم أرك يوماً أكثر جمالاً، أميرتي!».

ما سر هذا الرجل؟ إنه يقول الكلام المناسب في الوقت المناسب. سألت نفسها وهي تشعر بصدمة تركتها غير قادرة على التفوه بأية كلمة.

لم تكن ناتالي الوحيدة التي أصابها التعجب والتساؤل. فعندما وصل هذا الرجل، بدا كأن الطاعون نفسه قد انتشر في الغرفة، إلاّ أن توازن القوى تغير منذ تلك اللحظة. إذ سرعان ما ظهر للعيان أنه الرابح في معركة الارادة مع سيدة المجتمع المميزة باربرا وايد، أما أولئك الذين أداروا ظهورهم له منذ عدة دقائق، فراحوا يرمقونه الآن باحترام يشوبه الحقد والحسد. بربطة عنق سوداء أم بدونها، هذا الرجل يستحق نظرة ثانية!

لم تستطع ناتالي إلا أن توافق على ذلك. فقد رتب دمتريو شعره الأشعث ليصبح أملس، كما محا كل آثار للظلال تحت عينيه، وقص أظافره التي بدت نظيفة ومرتبة تماماً، أما عطر ما بعد الحلاقة الذي وضعه فبدا منعشاً ومميزاً.

ومع أن اختياره لثيابه ليس تقليدياً على الإطلاق، لكنها لا تستطيع أن تنكر أن سترته أنيقة جداً، كذلك قميصه وربطة عنقه المصنوعتين من الحرير الصافي. لم يعد لدى ناتالي أي شك وهي تقوم بجولة بين الحضور برفقته، أنه يستطيع تدبير أمره في مجتمع أكبر من هذا.

لم يخيب دمتريو أملها البتة. تعامل مع كل تعارف باحترام واهتمام، مما أثار إعجابها وغضبها معاً. تساءلت من هو الشخص الذي يحاول دمتريو أن يبزأ به، هي أم كل شخص آخر هنا؟

أدركت أنها ليست الوحيدة التي تشعر بالحيرة نحوه، مع أن الرجال صافحوه باحترام، واستجابت النساء له بابتسامات حذرة. عندما سمع جرس العشاء، واجتمع المدعوون كلهم في غرفة الطعام، شعرت ناتالي أنهم لا يزالون يتوقعون أن يرتكب أخطاء رهيبة، وهم بالكاد يستطيعون الانتظار حتى يرونه يعود إلى حجمه الحقيقي.

لم يحقق لهم دمتريو ما يتمنونه، فقد تصرف بكياسة ولباقة مميزتين مع السيدتين اللتين جلستا على المقعدين المجاورين له، فأحنى رأسه بانتباه ليصغي إلى أحاديثهما. بدا واضحاً أنه يعرف تماماً أية شوكة يجب أن يستعمل، وأي كوب عليه أن يرفع، كما أبدى معرفة واسعة بالسياسة العالمية والاقتصاد وكذلك في عالم الرياضة. أخيراً، سألته امرأة تجلس بعيداً عنه، وهي امرأة لم تستطع تحمل ما تسمعه لدقيقة أكثر: «كيف توصلت إلى معرفة تلك المعلومات المختلفة لتبدو بهذه البراعة، سيد برتولوزي؟».

لو أن الظروف مختلفة، لوجدت ناتالي هذا السؤال هجومياً وغير لبق. أما الآن، فهي بالكاد تستطيع الانتظار لسماع إجابته.

- أمضيت عدة سنوات وأنا أتنقل في العالم، سنيورا.

أجابت المرأة باهتمام: «آه! أحقاً؟ هل تخبرنا عن الأماكن التي زرتها؟»

رفع كتفيه العريضتين وابتسم لها بثقة قبل أن يجيب: «أمضيت عدة أشهر في آسيا وأستراليا وفي الشرق الأوسط، لكنني أمضيت معظم الوقت في الولايات المتحدة».

رمقته المرأة بنظرات مليئة بالاعجاب الذي يقارب الافتتان قبل أن تقول: «أين كنت في الولايات المتحدة، بالتحديد؟»

- أمضيت معظم الوقت في نيو جرسي.

المعلومة الصغيرة أثارت اهتمام الحاضرين. ابتسم الجميع ابتسامات ملتوية، وتبادلوا نظرات الاستهزاء، مادل على أن افتراضهم الفوري هو أنه كان متورطاً في الجانب السيئ من الحياة هناك وبالتحديد في غاردن ستايت التي اقترن اسمها بالأعمال المشبوهة. بعد ئذٍ أضاف دمتريو بكسل، وفي الوقت المناسب: «... وتحديداً في برنستون».

انفجر الجميع بالضحك لدهشتهم، وسأله شخص آخر: «بالتأكيد أنت لا تقصد جامعة آيفي ليغ؟»

أجاب بنبرة سطحية: «بلى. هذا ما قصدته بالتحديد»

- وماذا كنت تفعل هناك، بحق السماء؟

- ألعب كرة السلة وكرة المضرب..

ومرة ثانية، أضاف بعد وقت قصير: «... حين لا أكون منشغلاً بحضور الصفوف».

هذه المرة، باربرا هي من طرح السؤال: «هل قلت حضور الصفوف؟ هل كنت تلميذاً في برنستون، سيد برتولوزي؟»

- بالطبع! سنيورا وايد.

أضاف بعد قليل: «لولا ذلك كيف يمكنني أن أدعي أنني أحمل شهادة ماجستير في الاقتصاد من هناك؟»

هذه المرة إجابته جعلتها تحبس أنفاسها، كذلك فعل كل من في الغرفة.

- مامن طريقة أخرى، بالطبع.

استعادت باربرا سيطرتها على نفسها، وحدقت به كأنها تقيمه للحظة: «آه! آه! سيد برتولوزي، يبدو أنني قللت من شأنك كثيراً».

مرة ثانية، ابتسم لها دمتريو تلك الابتسامة التي تبهر من يراها، وعلق قائلاً: «لا تهتمي للأمر، سنيورا. معظم الناس يفعلون ذلك، في اللقاء

www.elromancia.com

الأول».

لم تكن ناتالي متأثرة به كما حدث للجميع. على العكس من ذلك، فإن الشكوك التي اعتقدت أنها دفنتها، عادت تطاردها. وبينما كانت التصاريح والتعليقات تدور حولها، لم تسمع ناتالي سوى ذلك الصوت الذي يدوي في رأسها.

من هو هذا الرجل؟ وما الذي جعلك تعتقدين أنك تعرفينه؟ وكم عدد المفاجآت التي مازال يخفيها؟ ومتى سيعمل على إظهارها؟

* * *

نام دمتريو حتى وقت متأخر نهار الأحد، واستيقظ بعد الساعة التاسعة. تمدد على الفراش الجديد المريح، في سريره الكبير الجديد، ووضع يديه وراء رأسه. عبر الغرفة، كانت الأبواب الزجاجية التي تطل على الشرفة مفتوحة، لتظهر منظراً رائع الجمال للبحر التيراني الذي يصل إلى جزيرة صقلية البعيدة.

فكر أن هذه هي ليلته الأولى في الجناح الرئيسي في المنزل، وجعله ذلك يشعر بابتهاج وفرح غامرين. فقد جاء ذلك بمثابة تتويج لبراءته التي تجلت بوضوح في الليلة الماضية. لقد تمكن من التغلب على الكثير من الصعوبات من قبل، لكن لا شيء يمكن مقارنته بما حققه البارحة.

بدأ الأمر مع زيارة روسو الذي نقل إليه الأخبار السعيدة، فأعلمه أن عملية الشرطة انتهت بنجاح. أراد التحري الشاب أن يشرح له الأمر بالتفصيل، وبدا متشوقاً للقيام بذلك. لكن دمتريو لم يرغب بمعرفة التفاصيل، فهو يشعر بالرضى لأنه لعب دوراً صغيراً في تلك العملية.

ثم اختتم يومه بحفلة العشاء عند باربرا وايد. هو لن يخدع نفسه ليظن أن ليلة واحدة هي كل ما يحتاج إليه كي يتمكن من الدخول إلى ذلك المجتمع الأرستقراطي، لكنه من جهة أخرى لم يتوقع يوماً أن تدعوه المرأة إلى حفلة كهذه. الأمر الذي يهمه هو أنه أثبت وجوده وخرج منتصراً من مشادة هدفت إلى التخلص منه، مع انتهاء السهرة، لا بد أن الجميع تساءلوا كيف تمكن من الانتصار عليهم في لعبتهم.

كان باستطاعته أن يخبرهم كيف جرت الأمور معه ليصل إلى حيث هو الآن، لكنه لا يرغب بتقديم تفسيرات إلا لناتالي، فهي وحدها من بين كل الناس، تقبلته كم هو، ولم تطلب منه مرة أن يتغير.

لقد تمكنت من رؤيته على حقيقته، على الرغم من ستار الكبرياء الذي كان يختبئ خلفه. لقد أحبت فيه الرجل الحقيقي، وبسبب حبها غير المشروط، تمكن دمتريو من التخلص من المرارة التي ملأت حياته لمدة طويلة.

أغمض عينيه وابتسم. أخيراً أصبح حراً، وقادراً على الاعتراف لها بذلك الحب الذي يشعر به نحوها، فيخبرها عن الآمال التي زرعه حبها في نفسه: بالزواج منها، وبإنشاء عائلة وبإنجاب أطفال متحررين من الماضي السيء... أطفال لن يعرفوا مطلقاً ألم الرفض أو العار.. أطفال سيكبرون وهم يشعرون بالفخر لأنهم يحملون اسم برتولوزي.

إن وافقت ناتالي على طلبه بالزواج منها، فذلك يعني أن العمل الشاق المضني الذي قام به وهو يرمم الفيلا حقق هدفاً أكبر بكثير من تخليد ذكرى جدته. سيصبح عمله هذا هديته للمرأة التي يحبها، وهو يعرف أنه سيحبها إلى الأبد، وميراثه للأطفال الذين ستنجبهم له.

رن جرس الهاتف بجانب السرير. مد دمتريو يده وهو لايزال مبتسماً، ومغمض العينين. قرّب سماعة الهاتف من أذنه وقال: «نعم!»

سمعها تقول: «أنا ناتالي! نحن بحاجة إلى التكلم معاً!».

١١ - من أنت؟

كان دمتريو في الخارج عندما وصلت، كان واقفاً بجانب شاحنته القديمة يتحدث إلى اثنين من العمال الذين حلّوا محل فريق العمال السابق. قال وهو يشير لها لتدخل إلى المنزل: «لن أتأخر عليك كثيراً».

لم تمانع ناتالي في الانتظار، إذ منحها ذلك فرصة لرؤية المكان جيداً، فالتغييرات التي حدثت منذ وصول العمال الجدد بدت مذهلة. تم استبدال قطع الرخام المكسورة، وتم تلميع البلاط بشدة. الألواح الخشبية والأفاريز المكسوة بالجص عاد إليها توهجها الأساسي، وقد ملأت رائحة عطر الليمون وشمع العسل المكان. لاحظت أن معظم المفروشات من الطراز الحديث باستثناء بعض القطع القديمة الرائعة الجمال، والتي تعود لجدته. لابد أنها القطع التي وضعها في المخزن منذ وقت وفاتها.

باستثناء البيانو الضخم المصنوع من خشب الأبنوس الأسود المزخرف، وبعض الأواني المليئة بالنباتات الجميلة، فإن مفروشات قاعة الاستقبال كلها من الجلد الأبيض الفاخر، مع مصابيح من المرمر وطاولات من الزجاج الفاخر. بدا كل شيء رائعاً، مميزاً وممتعاً للبصر. هذا المكان الفسيح المليء بالأناقة يلفت الانتباه إلى الشرفة الواقعة خلف الأبواب المفتوحة. استطاعت ناتالي أن تتخيل كيف سيبدو المنظر في شهر كانون الأول؛ سوف تتوهج قطع الحطب المشتعل في المدفأة الرخامية البيضاء، فيما تتألق أزهار البونسية ذات اللون الأحمر الداكن حول المدفأة والطاولات المحيطة بها.

من هو مالك هذه الفيلا المرممة حديثاً، والتي تنضح بالذوق والثراء؟ ومن أين أحضر المال ليصنع هذا الجمال كله؟ ربما السؤال الأكثر إلحاحاً هو: ما

هو هذا الرجل؟ أهو حبيب أم كاذب؟

عندما اتصلت به عبر الهاتف هذا الصباح، بادرها قائلاً بنبرة رقيقة: «أتريدين أن نتحدث؟ يمكنني أن أفكر بطرق أفضل لقضاء النهار. كيف حالك هذا الصباح، حبيبتي؟»

عاهدت ناتالي نفسها على البقاء قوية وثابتة العزم، مع أن عقلها وساقيها تحولت إلى هلام.

أجابت: «أشعر بالارتباك»

تذكرت تعليقات جدتها وهما تشربان شراب الميموزا قبل تناول الطعام هذا الصباح.

- ذلك الشاب فاجأنا جميعاً باستثنائك أنت بالطبع، عزيزتي. لا شك أنك كنت تعلمين من قبل أن هناك الكثير الذي لا يمكن معرفته عنه مطلقاً من خلال النظر إليه.

آه! إنها لا تعلم شيئاً.

بالكاد تمكنت من النوم البارحة وهي تحاول أن تفهم لماذا أبقى كل تلك المعلومات عنه طي الكتمان، وأخيراً توصلت إلى استنتاج مقنع. في الواقع، تصرفه ليلة البارحة أعاد شكوكها السابقة إلى نقطة الصفر. مهما حاول دمتريو أن يبرر أفعاله، فكل ما سيضيفه سيبقى مجرد نفاق بالنسبة إليها.

أغلق دمتريو باب الشاحنة القديمة، وسُمع في المكان هدير المحرك، تبعه صوت العجلات فوق الطريق الفرعية المغطاة بالحصى، ثم غاب الصوت ما إن ابتعدت الشاحنة أكثر. بعد مرور لحظة، دخل دمتريو إلى المنزل وأغلق الباب الرئيسي وراءه.

- أين أنت، أميرتي؟

قالت: «في قاعة الاستقبال»

سار بخطى واسعة إلى حيث تقف بجانب المدفأة، وضمها إليه في عناق حار. قبل هذا اليوم، كانت لتبيع عقلها وروحها من أجل عناق كهذا، أما اليوم، فبقي عقلها مسيطراً على مشاعرها بسبب التشوش الذي أصابها ليلة

www.elromancia.com

البارحة. ابتعدت عنه ومسحت وجهها بظاهر يدها، كأنها أرادت التخلص من تأثيره عليها.

تبدلت تعابير عينيه الجميلتين فجأة. أطلق سراحها وأشار لها نحو الأريكة المكسوة بالجلد الأبيض قائلاً: «هل نجلس؟»

- أفضل أن أبقى واقفة.

- ما رأيك بأن نحتسي شراباً ما، إذاً؟ كالقهوة مثلاً.

قالت بتصميم: «لا أريد شيئاً. شكراً لك».

أدركت ناتالي بدون أي شك أن أي اقتراب منه سيضعها في دائرة الخطر، فابتعدت أكثر عنه. ابتسامته، لمسة خفيفة من يده، أو حتى رائحة عطر مابعد الحلاقة الذي يضعه.. تلك الأشياء تشكل أسلحة قاتلة بالنسبة لها.

ظهرت على وجه دمتريو ملامح الانزعاج، وعلق قائلاً: «أؤكد لك أنني لا أعض، ناتالي. بإمكانك أن تتخلي عن تحفظاتك وتشعري بالأمان معي».

قالت بقسوة: «سأترك أمر تقرير ذلك إلى وقت لاحق، بعد أن تبين لي بوضوح تام أنك لست الرجل الذي ظننت أنني أعرفه. أشعر كأنني أواجه شخصاً غريباً.. من أنت فعلاً دمتريو؟ وما الذي تخفيه بعد؟».

تمايل دمتريو بخفة على عقبي قدميه، ووضع يديه في جيبيه. لاحظت ناتالي أن لا أثر لبنطلون الجينز وللقميص القطنية القصيرة الكمين. فها هو ينتعل اليوم حذاء أسود اللون، ويرتدي بنطلوناً أسود وقميصاً مخططة باللونين الأسود والأبيض، وقد رفع كميه عن ساعديه فبدت في معصمه ساعة ذهبية أنيقة. إنها ساعة عادية، لكنها أنيقة جداً، وباهظة الثمن جداً جداً.

سألها ببرودة.: «ومن تعتقدين أنني أكون، ناتالي؟»

- بعد العرض الذي قدمته ليلة البارحة، لا أملك أية فكرة عنك على الإطلاق.

- إذاً دعيني أخبرك. أنا بالتحديد الرجل ذاته الذي كنته، والذي تعرفينه جيداً. إنه الكتاب نفسه، لكن الغلاف مختلف، هذا كل شيء.

- كيف يمكنك أن تفعل مافعلته بالأمس، وتتوقع مني أن أتقبل الأمر؟ لقد

عملت بإرادتك الكاملة على خداعي، وجعلتني أعتقد أنك..

توقفت عن الكلام، وكأنها لا تجد الكلام المناسب لتقوله.

لم يضيّع دمتريو الوقت لإنقاذها فتابع قائلاً على لسانها: «الشاب الجاهل الذي يعيش في المنزل المجاور، والذي بالكاد بستطيع أن يحصل على المال ليقوم بأود عيشه، لذلك فهو يعمل بمشقة وجهد ليرمم منزلاً لاعلاقة له مطلقاً بامتلاكه منذ البداية؟»

تابع بصوت خشن وقاسٍ: «يا إلهي! أميرتي. كيف استطعت الانتظار حتى الآن لتكشفي لي أنك تفكرين تماماً مثل أي شخص يعيش في الجوار؟»

ردت قائلة: «تجعل ما يحدث غلطتي أنا! ولا تقدم على التفوه بكلمات على لساني لم أقلها. كنت صريحة وصادقة معك منذ أن التقينا، وهذا أمر واضح جداً ولايمكن مقارنته بطريقة معاملتك لي!»

- ياإلهي! ما هذه اللهجة التي تتحدثين بها؟ ما الذي ستقوله جدتك لو سمعتك؟ على الرغم من أنني، بعد أن رأيتها ليلة البارحة، أدركت أنك لست بحاجة لأكثر من نفخة بسيطة لتوقعيها عن كرسيها.

هز راسه، وظهرت ابتسامة تنم عن الانزعاج على وجهه قبل أن يتابع: «لقد حصلتِ على حب امرأة عظيمة، تمتلك الشجاعة لتقف وتعترف أمام أصدقائها أنها مخطئة بشأن الجار الذي اعتبره الجميع حثالة المجتمع».

- مهما كانت أخطاؤها، فجدتي لم تخشَ يوماً قول الحقيقة، وأنا كذلك!

- هل تلمحين إلى أنني لست كذلك؟

- أقول إن الرجل الذي يخفي قوته وإنجازاته، ويترك الناس يعتقدون أنه فقير معدم، لا يمكن اعتباره أهلاً للثقة. إنها طريقة ملتوية تثير الشكوك.

- إذاً، أنت غاضبة لأنني أقحمت أنفي في مجتمع أصدقاء جدتك. هل هذا ما يغضبك؟

- لا! أنا غاضبة لأنك أقحمت أنفك في حياتي. أما كنت أستحق أن تعاملني بطريقة أفضل بعد أن تشاركنا معاً الكثير من الأوقات السعيدة؟ كدت أموت من القلق ليلة البارحة، وأنا أتساءل كيف ستتمكن من التعامل مع ذلك

www.elromancia.com

الحشد كله..

- يسعدني أن أعرف أنك تهتمين لأمري إلى هذا الحد!

- حسناً! ما الذي تتوقعه غير ذلك؟ عندما ظهرت وأنت ترتدي تلك البذلة، مع تلك القميص وربطة العنق.. ياإلهي! ألا تعرف نوع الانطباع الذي أعطيته؟ أنا نفسي شعرت بالصدمة! بدوت كأنك...

لم تقل برتولزي حقيقي، قال دمتريو بصوت ناعم كالحرير: «اعتقدت أنك ذكية بما فيه الكفاية كي لا تتأثري بالمظاهر، ناتالي، وهذا يثبت لي أن الرجل يخطئ في الحكم على الآخرين عندما تسيطر مشاعره على تفكيره».

- لا علاقة للمشاعر بذلك مطلقاً، دمتريو. مرة ثانية أقول لك: «لقد وثقت بك، وأنت كذبت علي!»

- الاحتفاظ بتفاصيل حياتي الشخصية لنفسي لا يمكن اعتباره كذباً...

- لكن هذا لا يعني أيضاً أنك صريح، أنك تعلن عما تقوم به بوضوح. لِمَ لم تخبرني عن نفسك بصراحة من قبل؟ ليس هناك ما يجعلك تشعر بالخجل.

ردّ بنبرة ملؤها السخرية: «لطالما رغبت بذلك، لكنك كنت تمضين وقتاً ممتعاً وأنت تقومين بدور السيدة الكريمة مع الفقير اليائس الذي يقطن في المنزل المجاور، ولم أرغب في إفساد متعتك».

بالكاد استطاعت ناتالي تصديق ما سمعته.

- ألهذا السبب لم تكشف وجهك الحقيقي حتى ليلة البارحة؟ ألكي تعاقبني وتراقبني أتململ على خطيئة لم أرتكبها مطلقاً؟

قال بنبرة صوت مدمرة: «لا تقلقي بشأن ذلك أميرتي. إن كنت قد سببت لك الرعب، فأنا واثق أن أحداً لم يلاحظ ذلك، لأنك تصرفت بلباقة وكياسة لا مثيل لهما. فأنت معتادة على التصرف السليم منذ ولادتك، كما يقولون».

- جعلتني أبدو حمقاء تماماً، كما فعلت مع أي شخص آخر هناك، والجميع يعرف ذلك.

- لم ترَ جدتك الأمر على هذا النحو. لدي انطباع بأنها استمتعت فعلاً بالعرض.

- لأنها مقامرة مثلك تماماً، أما أنا فليس هذا ما أصبو إليه، كما أنني لا أريد الزواج من شخص مقامر.

نظر حوله متظاهراً بالاستغراب، ثم علق قائلاً: «هل تقدم أحدهم هنا طالباً يدك ولم ألاحظ ذلك؟».

انكمشت ناتالي كما لو أنها تلقت صفعة على وجهها، وقالت: «من الواضح أن هذا لم يحدث... ما حدث يجعلني أتساءل، لماذا بقينا معاً، طوال الأشهر القليلة الماضية. أخبرني دمتريو، من أنا بالتحديد بالنسبة لك...؟ أم فتاة تستطيع التباهي بها أمام أصدقائك، فتقول لهم: تصوروا! لقد تمكنت من الحصول على وريثة أميركية، وهي لا تعرف أنني مليونير؟»

نظر إلى البعيد، ثم هز رأسه. وابتسم، لكن هذه المرة لم تحمل ابتسامته أي مرح. قال: «رأيك بي سيء جداً ناتالي. أليس كذلك؟»

- لو أن ماتقوله صحيح، لما أغرمت بك مطلقاً.

- أنت لم تغرمي بي، بل أغرمت بفكرة البطل السيء السمعة.

تابع بانزعاج وبصوت حاد: «كنت بالنسبة إليك مختلفاً عن كل الشبان الذين تعرفينهم أنت وصديقاتك. رأيتني أقوم بأعمال قاسية وألوث يدي، كما رأيتني أقود شاحنة قديمة الطراز، وأملك كلباً غريب المظهر، وعلى الرغم من ذلك كله تجرأت ووضعت يدي عليك وعانقتك».

فتح عينيه على اتساعهما حتى بدتا كزهرة استوائية متفتحة، ثم أطلق زفرة قوية قبل أن يتابع معلقاً بصوت مزيف: «آه، ماتيلدا! لن تصدقي ما الذي حدث معي! لقد تعرفت على زعيم عصابة».

بالكاد استطاعت ناتالي ضبط أعصابها كي لا تصفعه، وصاحت به: «اخرس! أنت تتفوه بالحماقات».

- أحقاً؟

سار بخطى واسعة نحوها، وتابع: «آه! هيا عزيزتي ناتالي... اعترفي بالأمر. إن فكرة تعرفك إلى رجل سيء أثارت اهتمامك. أليس كذلك؟»

- أنت مخطئ. افتقادي للخبرة في العلاقات العاطفية لا يعني مطلقاً أنني

www.elromancia.com

غيبة.

تحدثت بقوة واندفاع، لكنها لم تستطع أن تحدق مباشرة في عينيه، لأنها شعرت بالخوف من أن يكون هناك ذرة من الحقيقة في اتهامه؟

انفجر دمتريو بالضحك، واستمر في مطاردتها، وجعلها تنكمش على نفسها، باحثة عن طريقة للهرب.

قال لها بصوت كالزئير: «انظري إلي، ناتالي!»

دفعها نحو البيانو وقف كالبرج وهو يتابع: «توقفي عن إدارة وجهك عن الحقيقة التي لا تعجبك. انظري إلى ما أنا عليه فعلاً، ولا تنظري إلى ما أرتديه، أو ما أملكه، أو ما تعتقدين أنني يجب أن أكون عليه!»

- كيف تتوقع مني أن أفعل ذلك، في حين أنني لا أعلم حقاً أي نوع من الرجال أنت، وأنت لم تزعج نفسك مطلقاً بإخباري؟

تلاشى غضبه بنفس السرعة التي ولد فيها، فتنهد بقوة، وأغمض عينيه بقلق وحزن.

- ظننت أنني لست بحاجة إلى إخبارك بأي شيء. اعتقدت أنه يكفي أن أظهر أمامك على حقيقتي كرجل، لكن يبدو أنني كنت مخطئاً.

قالت بصوت ضعيف: «أخشى القول إنك كنت كذلك. جميعنا لدينا ماضٍ، دمتريو. وهذا الماضي هو الذي يجعلنا مانحن عليه الآن. لكنك أخفيت ذلك كله عني، وأظهرت لي ما تريدني فقط أن أراه. هذه خدعة متعمدة».

تأملها دمتريو ملياً، ثم رفع كتفيه باستسلام، وقال: «أتريدين الطبعة النهائية؟ حسناً سأخبرك بها».

ارتمى على الأريكة، وظل ساكناً للحظة، ثم بدأ يقول: «منذ سبعة عشر عاماً، أي عندما كنت بالتحديد في منتصف عمري الحالي، غادرت هذا المنزل عازماً على أن أثبت نفسي. يومها كنت مراهقاً طموحاً. توجهت مباشرة إلى نابولي، وهي مدينة أعرفها جيداً. كنت متأكداً من أنني أستطيع أن أحقق النجاح في حياتي، وعندما لم يقدم لي العمل النزيه المكافأة التي اعتقدت أنني أستحقها، وجدت طريقاً آخر لأحقق رغبتي في النجاح».

سألته بقلق: «أي نوع من الطرق؟».

جلست ناتالي على الجانب الآخر من الأريكة، مبتعدة عنه قدر استطاعتها. قال ببلادة: «طريق السوء، أميرتي. ألم تسمعي بالمثل القائل يمكنك أن تأخذ الشاب بعيداً عن الريف، لكنك لا تستطيع أن تنزع الريف من قلب الشاب؟» هذا ما حدث بالضبط، فدماء جدي تجري في عروقي، ولقد علمني جيداً. عندما أصبحت في التاسعة عشرة من عمري، كنت قد تعرفت على عدد من الأشخاص، لديهم القدرة على التلاعب في القانون، وعدد هؤلاء أكثر مما تتصورين، في حين لم يكن لدي صديق واحد يستحق الاحترام».

- هل انتهيت في السجن؟

- لا! ليس تماماً. عدت إلى المنزل خائب الأمل، وعاطلاً عن العمل...

بعدئذٍ اتكأ على الوسائد، وغابت نظراته وهو يستذكر الماضي البعيد.

قاطعته بلطف: «ماذا حدث بعد ذلك؟».

قال: «غلطة كبرى! كان جدي غارقاً حتى أذنيه في الأعمال السيئة، وهو على رأس عصابة مسلحة، ما جعل الخوف والرعب والتهديد بالانتقام تقض مضجع جدتي. بالإضافة إلى ذلك، لم يرحب أي من الجيران بعودتي بل أظهروا لي اشمئزازهم بوضوح».

توقف عن الكلام برهة قبل أن يعود فيستأنف كلامه من جديد: «لم يمضِ وقت طويل على ذلك حتى نفد حظ جدتي، إذ قام أحد أفراد عصابته بخيانته، فتم إلقاء القبض عليه وحكم عليه بالسجن مدة عشرين عاماً».

- آه، دمتريو! لا بد أن الأمر كان صعباً عليك.

حدق عبر الأبواب الفرنسية المفتوحة إلى السماء الواسعة الزرقاء، لكنه لم يرَ شيئاً، إذ كانت نظراته ما تزال غائمة كأنها في زمن آخر.

- لا! في الواقع، شعرت بالسعادة. لكن العار مزق روح جدتي. في تلك السنة بالذات، وفي صباح يوم بارد من أيام تشرين الثاني، توفيت جدتي في الغرفة التي تقع مباشرة فوق الغرفة التي نجلس فيها الآن.

اعتصر قلب ناتالي من الألم، من أجله ومن أجل جدته. رغبت بقوة أن

www.elromancia.com

تضع ذراعيها حوله، فتقول له كم هي آسفة، لكنه بدا منعزلاً جداً بحزنه، وهي لا تستطيع الوصول إليه. أكثر ما استطاعت القيام به هو أن تقترب منه وتلمس ذراعه بتعاطف صامت. على الفور ابتعد دِمتريو عنها رافضاً ملامستها وهو يتابع: «في الليلة التي سبقت وفاتها، جلست بجانب سريرها.. أمسكت بيدها، وتوسلت إلى الله ألاّ يأخذ المرأة الوحيدة التي أحببتها... المرأة الوحيدة التي أحبتني حقاً، لكن الله لم يصغِ إلي، إلاّ أنه أعطاها القوة الكافية لتفتح عينيها للمرة الأخيرة وتقول: «دِمتريو! أرى فيك الرجل الذي تمنيت أن يكونه والدك... أرى فيك التصميم والذكاء وسمو الروح، لكنني أخشى أنك ورثت منه ذلك الضعف الذي جعله ينتهي ميتاً في الشارع وهو في الحادية والثلاثين من عمره. أقسم لي إنك ستواجه تلك اللعنة التي تقضي على رجال عائلتي كالطاعون، وإنك سترتفع فوقها! من فضلك دِمتريو... طفل روحي وقلبي، عدني أنك ستكون أفضل من والدك، وأنك لن تتخلى مطلقاً عن نفسك أو عن أحلامك».

مسحت ناتالي دمعة سقطت على خدها. كم عانت تلك المرأة اللطيفة الرقيقة في حياتها، لتحمل مثل هذا الخوف على طفل أحبته بصدق!

تابع دِمتريو: «لم يكن صوتها أكثر من أنفاس متقطعة هامسة، وكان علي أن أنحني قربها لأتمكن من سماعها، لكن كلماتها حفرت عميقاً في ذاكرتي. بعد أن حُرمت من الإنسانة الوحيدة التي تهتم لأمري، تأملت في الوضع الذي أصبحت عليه؛ عاطل عن العمل، منبوذ، ولا أشعر بالرضى حيال أي شيء. يومها أقسمت على أنني سأشرف ذكراها بأن أجعل من نفسي إنساناً محترماً، أو أموت وأنا أحاول».

- وهذا ما فعلته!

لم تبالِ ناتالي بالدموع التي انهمرت على وجهها، بل تابعت: «لا داعي لتقول المزيد، دِمتريو فهمت الآن لما تصرفت على هذا النحو ليلة الأمس».

قاطعها كأنه لم يسمع كلمة واحدة مما قالته: «... وفي غضون أسبوع واحد، جمعت الأغراض التي كانت تحبها، وخبأتها في مخزن، وتركت ما تبقى

ليستمتع به جدي الذي تمنيت ألاّ أراه ثانية. وقبل أن أغادر، قمت بزيارة إلى قبرها، فوضعت فوقه باقة من الزهور وإكليل الجبل وعاهدتها: «سأجعلك فخورة بي جدتي. وأقسم أنني لن أخيب أملك مرة ثانية»».

عند تلك النقطة وجه نظره إلى ناتالي وقد عادت نظراته إلى الحاضر، وتابع: «ولم أفعل ذلك مطلقاً... ولن أفعل».

قالت بشوق وحماس: «أصدقك دِمتريو! وأنا آسفة لأنني لم..».

قال بسرعة: «لم انتهِ بعد».

بدا لها صوته كحد سكين يقطع الفضاء حولها، أما نظرته الثاقبة التي راح يرمقها بها ببرودة وعدم اهتمام فجعلتها تنكمش على ذاتها.

- اتجهت إلى ميلانو، وعملت في ورشة للبناء. في النهار كنت أتعلم تجارة مواد البناء، وأعمل نادلاً في الليل. خلال سنة واحدة، وفرت ما يكفي من المال لأتابع تعليمي فسجلت في دوام جزئي في الجامعة. بعد مرور عدة أشهر، تتبع أثري مكتب شهير للمحاماة في نابولي عبر شركة البناء، وأبلغت أن جدي توفي في السجن، وبما أنني الشخص الوحيد الذي مازال على قيد الحياة من العائلة، فقد ورثت ممتلكاته كلها. بين ليلة وضحاها تبدلت حياتي، وبعد أن كنت أعيش على حدود الفقر أصبحت وريثاً لهذه الفيلا، ولمبلغ من المال، مع أن مصادره لم تكن مشرفة.

لم تستطع إلا أن تقاطعه من جديد، وسألته: «أهو ذلك المال الذي ساعد على تحقيق هذا كله؟»

رماها بنظرة تحمل الازدراء، وقال: «ربما لم تسمعيني جيداً في المرة الأولى، لذلك سأقولها من جديد: لقد شرفت وعدي لجدتي!»

- هل رفضت أخذ المال؟

- المحافظة على كلمتي لم تجعلني أتصرف بحماقة فأرفض هدية بهذا الحجم. على الرغم من اعتراضي على مصادر المال، استخدمت ذلك المال لدفع مصاريف متابعة دراستي الجامعية. حصلت على إجازة في العلوم السياسية، وعلى شهادة خاصة في الاقتصاد والنقد الدوليين من جامعة في ميلانو،

بالإضافة إلى ماجستير في إدارة الأعمال من برنستون. هذه الأخيرة جعلتكم تصابون جميعاً بالذهول ليلة البارحة.

ضحك بمرارة، وتابع: «شعرت بفرح كبير لأنني حولت ذلك المال العفن إلى شيء يستحق السعي إليه، لا سيما أنني أدركت أن إنفاق المال على تعليمي سيقلق جدي حتى وهو في قبره»

- ومن أين دفعت تكاليف الأسفار التي قمت بها؟

- هذه أيضاً هو من دفعها، وهذا أمر آخر كان يعتبره مضيعة للوقت والمال. لكن صدقيني أميرتي، هنالك أساليب كثيرة للتعليم واكتساب المعرفة في الحياة بالإضافة إلى مجموعة الألقاب التي تسبق اسمك. لا يحتاج المرء لأن يولد وفي فمه ملعقة من الذهب كي يحظى بالثقافة المطلوبة للعيش في المجتمعات الراقية. لا بد أنك لاحظت أنني لم أشعر بأي ارتباك حين دخلت إلى فيلا جدتك ليلة البارحة، وأنني كنت قادراً على المشاركة في تناول العشاء مع أبناء الطبقة الراقية من دون أن أرتكب الأخطاء.

قالت معترضة: «لا داعي لهذه الملاحظة، دمتريو، وأنت تعرف ذلك».

أدار نظراته في كل الاتجاهات وعلق قائلاً: «تأخر الوقت في هذه اللعبة الآن كي تدعي أنك وثقت بي ثقة لا حدود لها، أميرتي».

أدارت ناتالي نظراتها بغضب تقلده، وقالت: «أولاً، لم أرَ يوماً أن مايجري بيننا لعبة، ثانياً لم يساورني الشك يوماً بأنك أكثر الناس نزاهة».

قال باقتضاب: «أنت تحاولين جاهدة ألا تجرحي مشاعري أميرتي، لكنك قبل عشر دقائق فقط اتهمتني أنني لست الرجل الذي اعتقدته. ماذا لو كنت على حق؟ ماذا لو كانت نزعة الجريمة والسطو عميقة في موروثي الجيني، بحيث أنني لا أستطيع التخلص منها، حتى لو حاولت أن أظهر نفسي كرجل محترم للجميع؟»

- هذا غير صحيح! كنت لأعلم لو أنك كذلك.

- أنت لا تعرفين شيئاً عن حياة نصف سكان الأرض، ولا فكرة لديك عن مدى الانحطاط الذي يمكن أن يصل إليه المرء.

صاحت به قائلة: «اصمت! وهذه المرة، أنا من لم تنتهِ من حديثها بعد. يمكنك أن تقلل من شأني قدرما تشاء، دمتريو برتولوزي، لكنني أملك تجربة كافية تسمح لي بأن أفهم الناس. أنا لم أسمح لأي رجل من قبل بالتقرب مني كما فعلت أنت، وأنت تعرف ذلك جيداً»

- اعذريني إن تساءلت لما فعلت ذلك!

- أنت تعرف السبب، وأنا لست متكبرة كي لا أكرر ذلك ثانية. أنا أحبك! لهذا السبب كنت مستعدة لأخنق أي شخص يجرؤ على قول كلمة سيئة عنك ليلة البارحة. أردت أن أحميك من أي تجاهل أو ازدراء خشية أن تصاب بأي أذى.

قال لها بصوت كالفولاذ: «حسناً! هذه معلومة جديدة لك، ناتالي. أنا لست بحاجة إلى امرأة كي تدافع عني كما أنني لست معتاداً على الاختباء وراء تنورة امرأة، ولست أبحث عن أم أخرى».

شعرت ناتالي بلسعة من الألم، فقالت: «إنها غلطتي، وهي واحدة من أخطاء كثيرة كما يبدو».

ظهر الألم واضحاً في صوتها، وعلمت أنه شعر به هو أيضاً. أحست بالغضب من نفسها بسبب الضعف الذي لا تستطيع السيطرة عليه، وقالت بغضب: «أتعلم ماذا، دمتريو؟ لقد اكتفيت منك. يمكنك أن تتعفن في الجحيم، ولن أهتم لذلك. ستشعر أنك بأمان هناك!».

- هل انتهيت؟

قالت: «نعم، انتهيت».

- إذاً، أقترح عليك أن تعودي إلى جدتك، وأن تتركيني وشأني أعيش حياتي الخائبة وحدي، وبالطريقة التي أعرفها. من الأفضل أيضاً أن تعودي إلى الولايات المتحدة وتنسي أننا تقابلنا يوماً.

عضت بقوة على باطن خدها، إلى درجة تذوقت معها طعم الدماء، ولم تعد تحتمل الألم الحاد في حلقها، كما شعرت بالتشويش والتمزق وبأن قلبها تحطم إلى مليون قطعة متناثرة.

لملمت ناتالي كبرياءها، ونهضت عن المقعد، ثم قالت بهدوء: «أعتقد أنه لم يعد هنالك ما يقال بيننا. يبدو أن صداقتنا القصيرة قد وصلت إلى نهايتها، وانتهى معها أي أمل... بأنه يمكن أن يكون هناك «نحن» يوماً ما».

ثم سارت مبتعدة، وهي تركز فقط على وضع إحدى قدميها أمام الأخرى لتختفي من أمامه بسرعة، قبل أن تستسلم للدموع التي تجمعت في مقلتيها.

* * *

أمضى دمتريو ما تبقى من النهار وهو يتصرف كالأحمق، إن لم يكن كذلك فعلاً. في صباح اليوم التالي، استيقظ ليجد نفسه مستلقياً على الأرض في غرفة نومه، ولم يستطع أن يتذكر إن كان قد صعد الدرج واستلقى هناك أم أنه سقط عن السرير، كما لم يعرف إن كانت الأصداء التي ترتج داخل رأسه هي نتيجة سقوطه عن السرير في منتصف الليل، أم سببها الغضب والحزن اللذان عاشهما البارحة.

أمضى وقتاً طويلاً في الاستحمام، وتناول الأسبرين وفنجاناً من القهوة ليتخلص من الصداع، لكن هذا كله لم يخفف الألم الذي يسكن قلبه. تذكر أنه يعرف عشرات النساء اللواتي سيشعرن بالسعادة لمجرد أن يتصل بهن، لكن ذلك لم يخفف عنه. من المفترض أن يشعر بالرضى والاكتفاء، لكن ليس هذا ما يشعر به. بدون وجود ناتالي في حياته تبدو حياته تافهة. حتى الشركة التي بناها من الحضيض والتي تحتل الآن المرتبة الأولى في حقل عملها في إيطاليا كلها تبدو بلا قيمة أيضاً.

قال محدثاً بيبو: «صاحبك العجوز أحمق!».

فتح بيبو عيناً واحدة ولفترة وجيزة لكي يعلن موافقته فقط، ثم ذهب لينام في الزاوية في مطبخها.

مطبخها؟!

طرف دمتريو بعينيه، متسائلاً منذ متى توقف من التفكير في المنزل كمشروع يخصه وحده، وبدأ يفكر في تحويله إلى مكان ترغب ناتالي في العيش فيه؟ هل حصل ذلك منذ المرة الأولى التي تعانقا فيها؟ أم عندما رأى الأوساخ تحت

أظافرها وهي تزيل الأعشاب الضارة من أحواض الزهور في حديقة جدته؟ أم أن ذلك حصل عندما ترك بيبو آثار قوائمه على تنورتها البيضاء، أم أن ذلك كله بدأ في اليوم الذي وصلت فيه إلى بيت جدتها ورأته يراقبها من السطح؟

لم يجد إلا إجابة واحدة عن أسئلته الكثيرة: الوقوع في غرامها أمرسهل جداً، لكن نسيانها والابتعاد عنها أمر لا طاقة لديه على القيام به! تركه ذلك أمام خيار واحد عليه القيام به.

* * *

أخبرته باربر وايد، عندما اتصل طالباً التحدث مع ناتالي: «لقد تأخرت قليلاً. أنا آسفة جداً، سيد برتولزي، لكنها قررت أن تقطع عطلتها وتعود إلى بلادها. فيما نحن نتحدث الآن، يوصلها سائقي إلى نابولي»

قال: «أخشى أن أقول لك إنني لن أسمح لها بالسفر! أنا أرغب بالزواج من حفيدتك، وأنا لا أؤمن بالخطوبة الطويلة الأمد، أو بالعيش في بلدين تفصل بينهما مسافات بعيدة. أريدها هنا معي».

- إذاً، أقترح عليك أن تتوقف عن إضاعة الوقت بالتحدث معي، وأن تبادر إلى إخبارها بما تفكر به. ساموبل سائق حذر جداً وقد انطلق منذ عشر دقائق فقط. إن أسرعت بالانطلاق الآن ستلحق به قبل أن يصل إلى المدينة. هل ترغب في استعمال واحدة من سياراتي؟ لا أعتقد أن شاحنتك قادرة على إتمام ما ترغب في القيام به.

- شكراً لك سنيورا وايد، لكن لدي وسائل نقل أخرى.

-إذاً أبقِ عينيك على سيارة مرسيدس سوداء، وأتمنى لك الحظ الجيد. سأنتظر عودة حفيدتي بفرح كبير.

www.elromancia.com

١٢ - أحبك... لا ترحلي!

على الرغم من أن الذهول الذي أصابها بسبب ما حدث، حماها بشكل ما من بشاعة اللقاء الأخير مع دمتريو، أدركت ناتالي أنها لا تستطيع البقاء في إيطاليا، فالرغبة في الذهاب إلى المنزل المجاور والتوسل إليه لإعطائهما فرصة أخرى، قوية جداً، وكبرياؤها وكرامتها لا تسمحان لها بالقيام بذلك. لم تعرف كيف تمكنت من تمالك نفسها لحظة رحلت، لكن ما إن أصبحت داخل سيارة جدتها المكيفة، ومع اختفاء مداخن فيلا دولفينا عن نظرها وراء الأشجار، شعرت أنها تنهار تماماً.

غمرتها ذكريات حبها القصيرة، ذلك الحب الذي لم يصمد طويلاً... من اللحظة التي وصلت فيها إلى أمالافي، رأت دمتريو يراقبها من سطح منزله، إلى ذلك اليوم الذي توقف فيه ليقلها إلى منزلها في تلك الشاحنة القديمة، يوم وضعت في حضنها ذلك الجرو المسكين، إلى المرات العديدة التي تمددا فيها على العشب في حديقته وراحا يضحكان معاً على بيبو أو على أمر قاله أحدهما، أو من دون سبب على الإطلاق إلا وجودهما معاً.

ليتهما ظلا كذلك إلى الأبد! أملت ناتالي أن يعيشا حياة بأكملها مليئة بالحب والفرح، وأوقاتاً مليئة بالسلام والرضى. بالطبع توقعت أن يحدث بينهما خصام في مناسبات عدة، لكن ذلك سيجعل توافقهما أكبر، فهذه هي الحياة الحقيقية، ولطالما حلمت أن ينجبا الأطفال... كادت تختنق وهي تتنهد آسفة على انهيار أحلامها، مذكرة نفسها بما آلت إليه الأمور الآن. لقد منحته حبها وحياتها منذ البداية، فهذه هي الطريقة الوحيدة التي تعرفها في الحب. ومنذ البداية، أخفى هو جزء من حياته عنها. من الصعب عليه أن يتغير،

فذلك جزءٌ من موروثه الجيني، تماماً كلون عينيه.

ربما تستطيع بعض النساء العيش مع وضع كهذا، لكنها ليست واحدة منهن. وعاجلاً أم آجلاً، سيحطم ذلك علاقتهما. من الأفضل أن يحدث ذلك الآن وهما ما يزالان قادرين على الابتعاد، بدلاً من حصول ذلك بعد أن يتزوجا، وينجبا الأطفال.

أراحت رأسها بيأس على ظهر المقعد وأغمضت عينيها، متمنية أن تغرق في سلام النوم، علّه يؤمن لها الراحة والهروب من أفكارها. لكن ذلك لم يحدث، إذ علا صوت بوق قوي من سيارة تقترب من الخلف، اخترق الأحساس بالأمان الذي بدأت تشعر به داخل السيارة، مبدداً الضباب الذي يغلف أفكارها، ودفعها للتيقظ بقوة. تمتم ساموبل وهو ينظر إلى المرآة التي تؤمن له الرؤية الخلفية: «ياله من مجنون!»

سمع صوت البوق مرة ثانية، ثم لثلاث مرات متلاحقة، كأن صاحب السيارة يصدر أمراً أو طلباً ملحاً. رأت ناتالي من زاوية عينها مقدمة سيارة فيراري حمراء اللون تقترب من سيارتها من جهة اليسار، إلا أن سائق هذه السيارة لم يتجاوز سيارتها كما توقعت، وهو أمر يستطيع القيام به بسهولة، بل بقي يلاحق المرسيدس بسرعة خطرة.

- اللعنة!

زمجر ساموبل، رافعاً قبضته عندما سمع صوت البوق للمرة الرابعة يلعلع في الفضاء، وتابع: «قاطع طريق! أين تكون الشرطة عندما يحتاجها المرء؟»

قالت ناتالي: «أعتقد أنه يحاول أن يجعلك تتوقف».

أنزلت زجاج نافذتها لتتمكن من الرؤية بشكل أفضل، لكن كل ما استطاعت رؤيته هو سقف السيارة الأخرى. تابعت: «ربما هو أحد رجال الشرطة، لكنه يقود هذه السيارة»

- بل أظن أنه رجل مجنون تماماً، سنيورينا.

فجأة تجاوزت سيارة الفيراري سيارة المرسيدس، وسمع أزيز المكابح، ما أجبر ساموبل على الضغط بقوة على مكابح المرسيدس. فكرت ناتالي أن سائق

سيارتها على صواب، فلولا رحمة الله ومهارة ساميول بالقيادة لما توقفت سيارة المرسيدس بعد أن انزلقت نحو حافة الطريق لتتجنب الاصطدام بمؤخرة السيارة الأصغر حجماً.

خرج السائق من سيارة الفيراري بسرعة البرق، وسار باتجاه المرسيدس، وقبل أن يتمكن ساميول من استيعاب ما يحدث ويقفل أبواب السيارة بطريقة آلية، وصل الرجل إلى النافذة التي فتحتها ناتالي، ففتح الباب وقفز إلى المقعد الخلفي ليجلس بجوارها.

بالكاد تمكنت ناتالي من رؤية شعر أسود أشعث وعينين زرقاوين في وجه برونزي اللون لكثرة ما تعرض لأشعة الشمس، قبل أن يضمها دمتريو بين ذراعيه ويشدها بقوة نحوه. جاء صوته كشراب الشوكولا الحار المحلى بالعسل، حيث بدا مليئاً بالعاطفة التي تضج في أعماق صدره وهو يقول: «الحمد لله إنني لحقت بك في الوقت المناسب، أميرتي».

* * *

احتاج الأمر إلى بضع دقائق قبل أن يتمكن دمتريو من إقناع ساميول أنها ليست في خطر الاختطاف، وأنها ستكون بألف خير إن انتقلت من المرسيدس لترافقه في سيارته الفيراري. مع ذلك، أصر ساميول على استعمال هاتف السيارة ليتصل بجدتها ويتأكد من الأمر. أثناء ذلك الوقت، ظلت ناتالي متمسكة برباطة جأشها. ثبتت حزام الأمان حولها، ثم وضعت يديها في حضنها، وضمت ساقيها إلى بعضهما البعض لتجلس بأناقتها المعهودة. حدقت عبر النافذة الأمامية، وأخذت تتأمل المناظر الطبيعية بينما راحت سيارة الفيراري تلتهم الطريق العام بسرعة... لا بد أنها تحلم... ولا بد لهذا الحلم من نهاية لتعود الحقيقة فتسحقها ثانية من جديد...

لكن هذا لم يحدث! على العكس من ذلك، دخل دمتريو من أبواب فيلا دولفينا، فأوقف السيارة أمام الدرج الأمامي للفيلا، قائلاً: «هاقد وصلنا إلى منزلنا، أميرتي!».

أليس هذا ما تمنته منذ اليوم الأول الذي رأته فيه؟ فما بالها لا ترقص

فرحاً، بل تشعر كأنها ستنهار من جديد؟

وضعت وجهها بين يديها وانفجرت باكية، فيما انهمرت الدموع من عينيها بسرعة كجدول غزير، وبدا لها أنها لن تتوقف مطلقاً. امتلأت السيارة بتنهداتها، ووصل صوت بكائها إلى الحدائق. حاولت أن تقول إنها آسفة، وإنها لا تعلم لماذا تتصرف كالحمقاء، وإنها حقاً بألف خير، لكنها لم تنجح إلا بالتفوه بتنهدات وتشنجات لا معنى لها على الإطلاق.

ضمها دمتريو بذراعيه من جديد بحنان ولطف كبيرين. وضع رأسها على كتفه، ومرر يده في خصلات شعرها تاركاً إياها تبكي على كتفه. شعرت ناتالي بقوته ودفئه وحنانه، كما استطاعت أن تشعر بأنفاسه على شعرها، وتسمع دقات قلبه الثابتة المطمئنة.

مر وقت طويل قل أن تنقشع تلك الغيمة السوداء التي سببتها لها الصدمة، والتي أمسكت بها بقوة، ولم يبقَ من أثرها سوى شهقات تصدر عنها بين الفينة والأخرى وبقعة كبيرة رطبة على قميصه.

سألته بصوت منهك وهي تبتعد عنه لتخفي وجهها: «لا أعتقد أنك تملك كيساً ورقياً في هذه السيارة، أليس كذلك؟»

- لا أعتقد ذلك، عزيزتي. لكن لماذا تريدينه؟.

- أريد أن أضع فيه رأسي، فأنا أتخيل أنني أبدو كالبندورة المهروسة.

رفع دمتريو ذيل قميصه، ومسح وجهها بنعومة.

- لكنني إيطالي، كما تعلمين. وأنا أحب البندورة، فهي غذائي اليومي. لا أستطيع تخيل يوم واحد يمر بدونها.

ابتسمت رغماً عنها، وقالت: «أراهن أنك تقول ذلك لكل النساء اللواتي تعرفهن».

- لا، أميرتي!

تابع بهدوء وهو ينظر إلى وجهها، فيما أصابعه تلامس بنعومة خدها: «إنه لك فقط، لأنك المرأة الوحيدة في حياتي، وإن ابتعدت عني ثانية، فلن تستحق حياتي كلها قرشاً مثقوباً».

قالت: «لم أرغب مطلقاً في الرحيل، لكنني لم أستطع تحمل البقاء، وأنا أفكر أن كل شيء بيننا قد انتهى».

- لن ينتهي مطلقاً!

- هل أنت متأكد؟

- متأكد تماماً.

وعلى الفور عانقها بقوة وبيأس كبيرين.

بعد مرور عدة دقائق سألها: «هل تدخلين إلى المنزل وتسمحين لي بتفسير كل ما حدث؟»

- بالطبع، سأفعل.

نزعت حزام الأمان، وفيما هو يستدير ليفتح لها الباب ويساعدها على الخروج من سيارة الفيراري المنخفضة، تذكرت الشاحنة فسألته: «أين هي شاحنتك؟ ولمن هذه السيارة؟»

- تلقت شاحنتي القديمة صرفاً مشرفاً من الخدمة، وهذ السيارة لي.

هذه المرة ضحكت بارتياح، وعلقت: «كان علي أن أحزر. أي إيطالي حقيقي لا بد أن يمتلك على الأقل سيارة فيراري حمراء واحدة».

انحنى ليهمس في أذنها: «في الواقع، لدي سيارة لمبورغيني أيضاً، لكنها ليست حمراء».

ابتعدت عنه، وشدت سترتها وتنورتها الكتانيتين، وهما السترة والتنورة اللتين ارتدتهما يوم وصلت إلى فيلا جدتها، منذ نصف جيل تقريباً.

- هذا كثير جداً عليّ.. أعتقد أن من الأفضل أن تبدأ بتفسير ما يجري.

- أقترح أن ندعو جدتك لتنضم إلينا. فما رأيك؟ عندما اتصلت بها صباح هذا اليوم، ذكرت لها بعض الأشياء، وأخشى أن تجد بعض الصعوبة في التعامل معها. قد يخفف عنها أن تسمع ما سأخبرك به.

على الرغم من تفاجؤها مما سمعته، وافقت ناتالي على اقتراحه.

عندما وصلت باربرا دعاها إلى غرفة الاستقبال. انتظر حتى عانقت ناتالي، وجلست بجوارها على المقعد، ثم بدأ بالكلام.

- أنت تعلمين بالطبع أنني تعمدت إخفاء حقيقة نفسي منذ اليوم الذي عدت فيه إلى هنا، وأنني لست ذلك الشخص الشرير الذي جعلتك تعتقدينه، لكنني أدرك أنه مازال هناك الكثير لتعرفيه قبل أن أسألك السماح. وأتوقع منك أن تقبليني بدون أية تحفظات.

قالت جدتها: «إذاً، تكلم أيها الشاب، ولا تتركنا في حيرة من أمرنا»

- حسناً!

دار حول الغرفة ووقف أمام لوحة زيتية تمثل امرأة في أوائل الأربعينيات من عمرها. علقت هذه الصورة منذ فترة قصيرة فوق المدفأة، وذلك بعد زيارة ناتالي الأخيرة إلى هنا. ترتدي المرأة ثوباً للسهرة ذا طراز تقليدي، مصنوع من قماش فاخر جداً قد يكون المخمل، وترفع شعرها إلى أعلى رأسها، وتضع حول عنقها الجميل عقداً من اللؤلؤ، تزين وسطه حبة كبيرة من الماس، وقد وضعت في أذنيها قرطين مماثلين من اللؤلؤ والماس.

بالطبع تعرفت ناتالي على تلك المرأة. على الرغم من أنها تبدو جميلة، إلا أن الحزن الذي بدا واضحاً على وجهها في صورة زفافها قد تضاءل الآن بسبب القوة والحزم اللذين ظهرا على ملامحها، ومع ذلك بدا واضحاً أن هناك عالم من الحنان يلمع وراء ابتسامتها، وحكمة باهرة تشرق في عينيها.

قال دمتريو: «هذه صورة جدتي».

هزت باربرا رأسها وقالت: «نعم، فأنا أتذكرها. كانت سيدة رائعة بالفعل».

أجاب: «جدتي هي مصدر إلهامي، لأجلها قطعت رحلة طويلة وشاقة حولتني من الرجل الذي كنت عليه وقت وفاتها إلى ما أنا عليه الآن. كنت في الثامنة والعشرين من عمري عندما عدت إلى إيطاليا بعد تخرجي من برنستون. استقريت في ميلانو لأنني بدأت من هناك عاملاً في حقل البناء».

علقت باربرا: «لا عجب إذاً أنك أظهرت خبرة واسعة في ترميم هذا المنزل».

- لم يكن ذلك مجال اختصاصي، لكنه صنع مني رجلاً حقيقياً لذا عدت إليه

فتاة ذات نسب وثراء، وأبدأ ببناء سلالة جديدة ثرية في ميلانو.

مرة أخرى نظر إلى الصورة قبل أن يتابع: «لكن قيامي بذلك سيعني أنني سأتنكر للإنسانة الوحيدة التي آمنت بي، وهذا أمر ماكنت لأقدم عليه مطلقاً. جدتي هي من دفعتني للوصول إلى مستوى النجاح الذي أعيشه اليوم، وأقل ما أستطيع القيام به لرد جميلها هو أن أمحو ذلك العار الذي عجّل في ذهابها إلى القبر. لذلك عدت إلى هذا المكان الذي أحبته أكثر من أي مكان آخر في العالم، وقررت أن أعيده إلى سابق عهده من التألق والجمال».

علقت باربرا: «لكنك لم تكشف حقيقتك أمامنا مطلقاً، بل اخترت التمويه على ما أصبحت عليه، وأنا أعجز عن فهم سبب ذلك. ما الذي أملت أن تحصل عليه من وراء ارتدائك ثياب عامل عادي، وقيادتك شاحنة كالخردة؟ لماذا لم تظهر على حقيقتك، لتتجنب أي نوع من الشك وعدم الثقة؟ لقد ساورت الشكوك الجميع بسبب تصرفك الغريب».

هز دمتريو رأسه وابتسم: «ما الذي كنت ستفكرين به سنيورا وايد لو أنني وصلت وأظهرت قدرتي على تولي المهمة التي قررت القيام بها، تماماً كما كان يفعل جدي عندما يقرر القيام بأمر ما؟».

فتحت فمها لتجيب، ثم أغلقته، وكأن مغزى سؤاله قد وصل إليها فعلاً.

قال: «بالضبط! عدم الثقة والشك كانا ليتضاعفا بالطبع. هذا ليس كل شيء. هنالك أمر آخر دفعني للقيام بتلك الأمور. أردت أن أبرهن أنني قادر على تولي أية مهمة صعبة، وقادر على إنجازها بعمل صادق ومجهود قوي، ليس فقط من أجلك ومن أجل الناس الذين يعيشون هنا، بل لنفسي. فهذه هي هديتي لجدتي، ووفاء لما أنا مدين لها به، وأعتقد أنني حققت ذلك الهدف».

قالت ناتالي ومشاعر الحب تضطرم في عروقها: «وأنا أؤمن بذلك أيضاً. أنا أؤمن بك، دمتريو».

علقت جدتها: «وأعتقد أنني كنت على حق عندما قلت إن هناك الكثير بشأنك وأن المرء لا يتمكن من معرفتك بمجرد النظر إليك. أنت فعلاً شخص مميز، دمتريو برتولوزي».

من جديد. بدأت بإنشاء شركة صغيرة للترميم والبناء مع فريق للعمل من خمسة أشخاص فقط. استدنت المال لأشتري فيلا قديمة مهدمة تقع قرب منتزه لا يبعد كثيراً عن المنطقة السياحية في البلدة، وحولتها إلى فندق صغير. حذرني عدد من الأشخاص الذين يعملون في هذا المجال من أن ما أقوم به هو مخاطرة كبرى، لكنه رد إليّ المال مضاعفاً. ومنذ ذلك الوقت، تطورت أعمالي بشكل منقطع النظير، ففتحت فروعاً لشركتي في جنوى وفيرنير.

نظر مباشرة إلى ناتالي، وابتسم قبل أن يتابع: «ومؤخراً، فتحت فرعاً جديداً في الجنوب على ساحل أمالافي».

قالت مستفهمة: «إذاً، العربتان والشاحنة ذات اللون الأخضر الداكن التي طبع عليها بلون ذهبي «أميرينزي للبناء» هي لك. أليست كذلك؟».

- هذا صحيح! فأميرينزي هو اسم عائلة جدتي.

توقف عن الكلام ولمس الإطار الذي يحتضن صورتها، معترفاً بصمت بفضل المرأة التي كانت، كما وصفها بالتحديد، مصدر إلهامه.

تابع يقول: «أعطاني النجاح ثروة كبيرة، لذلك تمكنت من شراء السيارات الفخمة، ومنزل مميز في أفضل منطقة في المدينة، وكوخ للتزلج في جبال الألب، وشقة في فينيسيا».

استدار عند ذلك، وتابع حديثه متوجهاً به نحو باربرا: «ذكرت ذلك وليس في نيتي أن أؤثر بك لأنني أملك ثروة كبيرة سنيورا، بل لأخفف من قلقك إن اعتقدت أنني أفكر في الاستفادة من ثراء ناتالي».

اعترفت باربرا قائلة: «مرت الفكرة في بالي للحظة، لكن من فضلك تابع سرد قصتك».

- بعد مرور فترة سيطر علي شعور بالضيق، وادركت أن هنالك شيئاً واحداً لا يستطيع المال شراءه، وهو إثبات نفسي أمام أولئك الذين مازالوا يظنون أنني رجل معدم بل نكرة، والظهور أمامهم كوريث لعائلة برتولوزي يرفض أن يستمر بالقيام بأعمال أسلافه. كان بإمكاني سلوك الطريق الأسهل والبدء من جديد في مكان آخر، فأبدل اسمي، وأبيع هذه الفيلا، وأتزوج من

www.elromancia.com

رفع يده وقال: «هنالك المزيد!»

ركز اهتمامه على ناتالي قبل أن يتابع: «لم يمضِ وقت طويل على اتهامك لي بالكذب عليك، أنت على حق في اتهامك؛ لقد كذبت عليك طوال الشهرين الماضيين».

سيطرت ارتجافة من البرد على الدفء الذي غمر ناتالي قبل قليل. لم تعرف بما تجيبه لشدة خوفها، فقالت: «لماذا دمتريو؟ أنا لا أفهم».

- لأنني عقدت اتفاقاً مع الشرطة في بوستيانو. طلبت مني الشرطة التعاون معها كي تتمكن من التخلص من رجل جشع سببت أعماله الكثير من المآسي في هذه الأرجاء، فلو ترك هذا الرجل على هواه سيتابع إثارة المشاكل والاضطرابات. أنت تعلمين عمن أتحدث، أميرتي... عن كاتانسكا.

علقت جدتها على الفور باحتقار واشمئزاز: «ذلك المخلوق المزعج! حان الوقت ليعمل أحدهم على إيقاف أعماله المشينة. لكنني لا أرى سبباً يجعل الشرطة تطلب منك التورط في عمل كهذا».

- أراد أن يشتري هذا العقار لأنه تمكن بالرشوة أو ربما بالتهديد من إقناع السلطات بتبديل قوانين المنطقة بحيث تسمح له بهدم هذا المنزل وبناء منازل صغيرة مكانه للبيع.

- يا إله السماوات!

بدت باربرا كأنها على وشك أن تصاب بسكتة دماغية.

- لا داعي للقول كم سيكون ذلك مزعجاً لك ولكل الجيران حولنا.

تابع دمتريو بضيق: «كان على أحدهم أن يوقفه عند حده، فيكشف الأعمال المشينة التي يقوم بها، لذلك وافقت على التعامل مع الشرطة».

أعاد اهتمامه إلى ناتالي، وهو يتابع: «أنا آسف جداً، السرية والكتمان كانا جزءاً من الاتفاق معهم، لذلك لم أستطع إطلاعك على الأمر. من جهة أخرى أردت حمايتك من أي تعرض لكاتانسكا، فكنت مرغماً على الكذب عليك. لكنني أعدك الآن أنني لن أخدعك أو أخيب أملك مطلقاً مرة ثانية».

قالت ناتالي وهي تشعر بارتياح لا يوصف: «لا داعي للاعتذار، فأنت

مثالي جداً بالنسبة لي كما أنت».

أجاب وقد حمل صوته بعض الشك والقسوة. «آه، أميرتي! أنا بعيد جداً عن المثالية».

- لا تقل ذلك دمتريو، فأنت بطلي!

- أي بطل؟ الأبطال لا يسمحون لكبريائهم بالسيطرة عليهم، بحيث تجعلهم يخاطرون بخسارة الشخص الوحيد في العالم الذي يحبونه أكثر من أي شيء أو أي شخص آخر في العالم كله.

قالت تجادله: «قل ما تريده، دمتريو. ستبقى بطلي المفضل، سواء أعجبك ذلك أم لا».

ضغط على عنقه بقوة ليخفف غصة تكونت في حلقه، ثم مسح عينيه بيديه، وقال: «إذاً ربما ستعطين الاهتمام الكافي للشيء الوحيد الذي بقي عليّ قوله».

- أووبس..!

قفزت جدتها من مكانها على الأريكة، وقالت: «إذاً حان الوقت لأبتعد أنا عن المكان. أين يمكنني أن أجد بعض العصير، دمتريو؟»

قال: «بجوار حجرة المؤونة في المطبخ. اذهبي إلى المطبخ وسوف تجدين خزانة..».

ربتت على يده قبل أن تخرج من الغرفة قائلة: «سأجدها بنفسي، عزيزي. أما أنت فلديك أمور أكثر أهمية لتقلق بشأنها. لن أضيع طريقي في منزلك».

سألته ناتالي بنبرة متوترة، ما إن ابتعدت خطوات باربرا: «عمّ تتحدث جدتي؟ ما هي الأمور الأكثر أهمية؟ ولماذا يجب أن تقلق بشأنها؟».

- لأنني لست متأكداً إن كنت ستعطيني الجواب الذي أرغب في سماعه.

نهض عن كرسيه وسقط على ركبة واحدة أمامها، ثم تابع: «لم أقل لك ذلك من قبل، لأن الكثير من الأمور كانت بحاجة إلى تسوية، أما الآن فأنا حرٌ كي أقول لك إنني أحبك بكل ما أنا عليه وبكل ما لدي، ناتالي! لا أستطيع تخيل حياتي من دون وجودك بجانبي. أريدك أن تشاركيني حياتي، وأن تعيشي معي في

www.elromancia.com

منزلي، وأن تنجبي أطفالي.»..

توقف عن الكلام لفترة وأخرج علبة صغيرة مغطاة بالمخمل من جيبه، وفتحها أمامها. ظهر في داخل العلبة خاتم من الذهب الأبيض تزينه حبات من الزمرد والماس على شكل قلوب.

- أعرف أنك تنوين تولي مهام الأعمال في شركة جدتك العالمية في يوم من الأيام، وأنا لن أسألك مطلقاً أن تتخلي عن تلك المهام، لكنني أطلب منك أن تتزوجي بي، أميرتي.

- آه!

عضت ناتالي بقوة على شفتها السفلى، ورحبت بالألم الذي شعرت به، فقد أكد لها أنها لا تحلم. نظرت إلى حبوب الماس التي انعكست فوقها الأضواء بإشراق وروعة. لم تظن مطلقاً أنها مازالت قادرة على ذرف المزيد من الدموع، إلا أن دموعها انهمرت، على أي حال. لكنها كانت مفعمة بالفرح هذه المرة.

قالت: «أنا موافقة! يسعدني جداً أن أتزوج بك، وأنجب أطفالاً لنا دمتريو. سأكون فخورة جداً بأن يعرفني العالم أجمع كزوجة لك؛ السيدة دمتريو برتولوزي».

نهض دمتريو عن الأرض وضمها بين ذراعيه بحب وحنان لا حدود لهما.

- أعدك أنك لن تندمي مطلقاً على ذلك، حبيبتي.

قالت: «توقف عن الكلام، وعانقني».

وهذا ما فعله! عانقها بقوة وشغف كبيرين، وهو يتمتم قائلاً: «هذه هي البداية، الأفضل سيأتي في ما بعد».

قالت جدتها وهي تدخل الغرفة وبيبو يسير وراءها: «أفهم من ذلك..»

وضعت صينية على الطاولة بعيداً عنه، وتابعت: «... أنني قمت بالاختيار الصحيح عندما أحضرت هذا الشراب الفاخر؟»

- لا شك بهذا...!

ضم دمتريو ناتالي إليه وهو يضع ذراعه حول خصرها، متابعاً: «فحفيدتك وافقت على أن تصبح زوجتي».

- آه، عزيزتي! أعتقد أن هذا يعني أنك ستأخذها للعيش معك في ميلانو.

- لا رغبة لدي في ذلك مطلقاً، سنيورا. هذا المنزل يجب أن يمتلئ بالحب وضحكات الأطفال... أطفالنا. أخطط لفتح فرع جديد لشركتي في هذه المنطقة.

ابتسم متابعاً: «ففي النهاية، بعد توقف كاتانسكا عن العمل، هناك حاجة ماسة للقيام بعمليات شرعية في البيع والشراء وإصلاح الوضع الذي خربه لسنوات. لكن الأهم من ذلك، هو أنني أعرف ما معنى الابتعاد عن الشخص الذي نحبه والذي له التأثير الأكبر في حياتنا، لذا لن أسأل ناتالي مطلقاً أن تتخلى عن روابط القربى معك، فقط لأنها تزوجت بي. أتمنى أن يكون هذا كافياً بالنسبة لك لتعطينا مباركتك، سنيورا وايد».

قالت: «أنت تعلم أنني أبارك هذا الزواج. و... دمتريو، أصدقائي ينادونني باربرا، ومادمت ستنضم إلى العائلة، فإنه لشرف عظيم لي أن تفعل مثلهم. والآن لنتناول الشراب، فأنا أرغب في شرب نخبكما».

رفعت كوبها وتابعت: «إليك عزيزتي ناتالي، لأنك رأيت الجوهر المميز لهذا الرجل والتي فشلت أنا في اكتشافه على الرغم من سعة تجاربي في الحياة. وإليك، دمتريو، من أجل كل المخاطر التي تحملتها لتصل بنا إلى هذا اليوم العظيم. أتمنى أن تكون حياتكما معاً طويلة ومليئة بالسعادة والحب».

نظرت ناتالي إليه من فوق حافة كوبها ووجدت نفسها أسيرة نظرته. ابتسم لها دمتريو، وأخفض رموشه بغمزة بطيئة طويلة تعدها بذلك كله وأكثر....